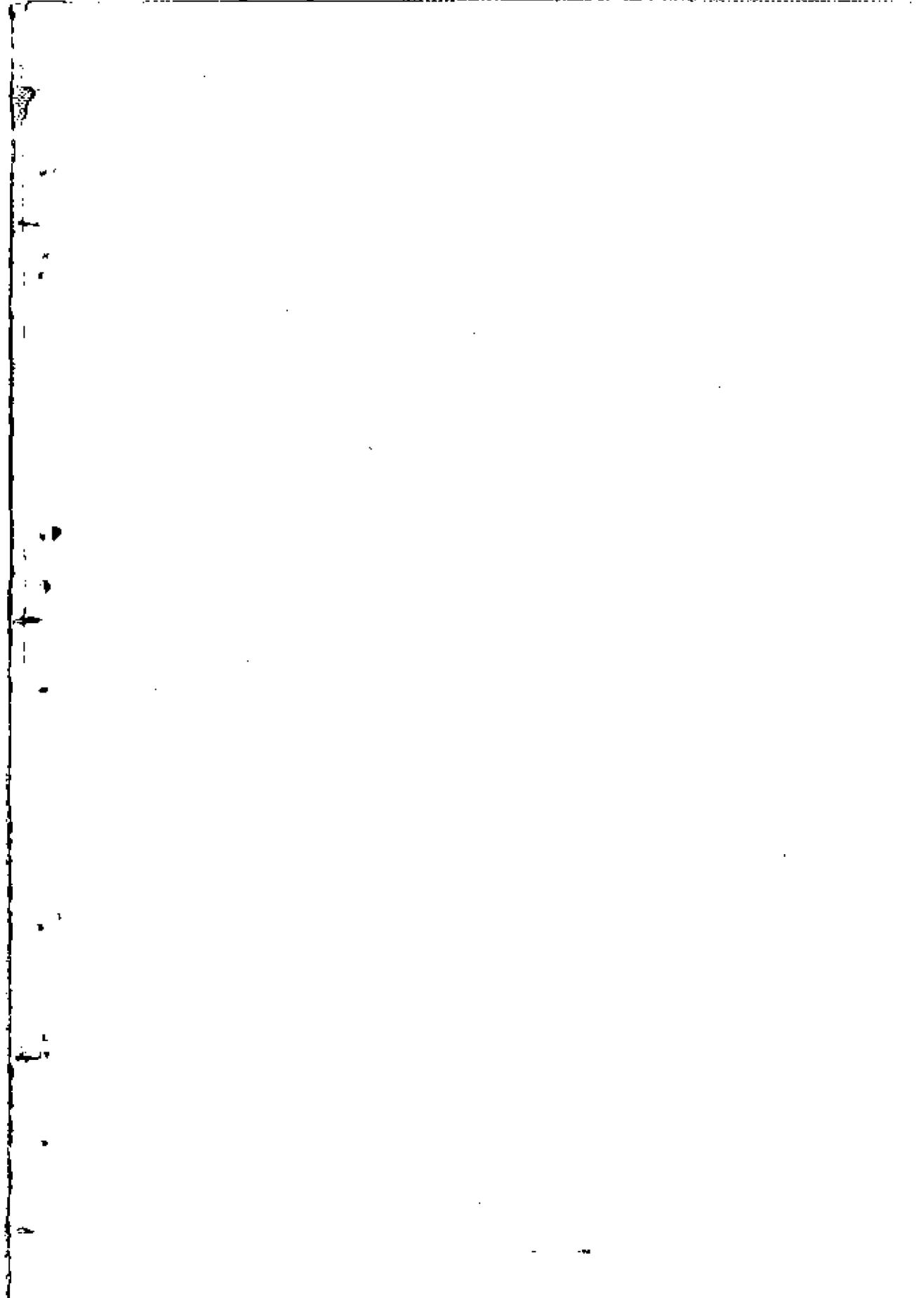


التحقيق التمهيدي
في
المستور الواسطي

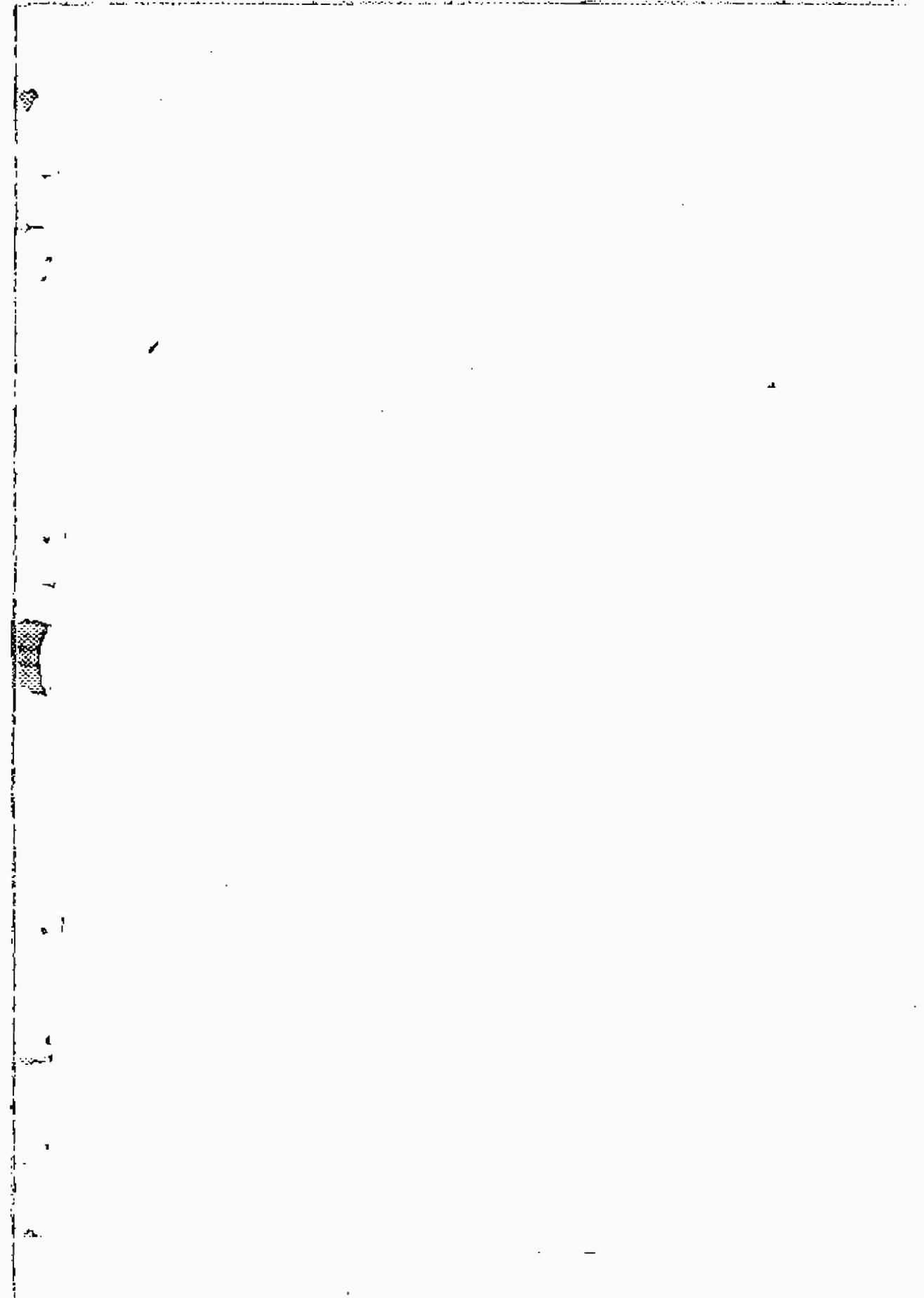
دكتور جابر سلامة المصري

المدرس بكلية التربية



" وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر
 يأتين من كل فج عميق "

سورة الحج ٢٧



تتفتح مصر بموقع ممتاز تفردت به بين أقطار الأرض ،
فهي ملتقى قارتين من أكبر قارات العالم القديم هـي
أفريقيا وآسيا ، فكانت مصر بمثابة القلب في العالم القديم
وحلقة اتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وفي ظل الاملا م احتلت مصر مكانة فريدة بين الجناحيين
الاميوى والافريقي للعالم الاسلامى .

وقد قدر لمصر أن تقوم بدورها بارزا في اطار الدولة
الاسلامية الكبرى كحلقة اتصال بين الجناحيين الكيريين
لتلك الدولة من ناحية ، وكمركز عبور هام من ناحية أخرى
سواء للحج أو التجارة .

والحج ركن كبير وهام من أركان الاسلام . يقول الله
تعالى " ولله علي النياح حج البيت من استطاع اليه سبيلا" (١)

ومن أجل هذا أعتنى المسلمون وحكامهم بالحج منذ فجر
الاسلام فاهتموا بعمارة المسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد
الرسول بالمدينة المنورة وحفروا الابار والعيون علي الطرق
المؤدية الي الاراضى الحجازية وأنفقوا العال الكثير .
وتتجلى مظاهر ذلك الاهتمام في عصر ملاطين المماليك عندما حج
السلطان الناصر محمد سنة ٥٧١٩هـ / ١٣١٩م فأنعم علي أمير خليص^(٢) بخمسة

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٢) خليص : حصن ما بين مكة والمدينة

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٦٠ هامش ١
ويقول المقرئى : وفي سنة ٧٢٠ عاد السلطان من الحجاز
بعدمابىر بخليص وقد جرى الماء فيها ، وكان قد ذكر له
وهو بمكة أن العادة كانت جارية يحمل مال الي خليص
ليجرى الماء من عين بها الي بركة يردها الحاج ، وقد
انقطع ذلك منذ سنين وصار الحاج يجد شدة من قلة الماء
بخليص ، فرسم بمبلغ خمسة آلاف درهم لاجراء الماء من العين
الي البركة وجعلها مقررة في كل سنة لصاحب خليص ، فأجرى
صاحب خليص الماء قبل وصول السلطان اليها واستمر جملة
المال يرسل اليه في كل سنة ووجد الماء في البركة دائما .
المقرئى : الذهب المسبوك ص ١٠٤ هامش ٢

ألاف درهم برسم عمارة عين خليس ، وكان لها عدة صنين قد
انقطعت ، وجعل ذلك مقررا في كل سنة برسم عمارتها .

وفي سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م أجرى الملك الناصر محمد
عينا الى مكة لتوصيل الماء الى الحجاج . وفي سنة ٧٤٤ هـ /
١٣٤٣ م أجرى نائب السلطنة بمصر عينا من منى الى بركة
العلم وذلك عن طريق منى . وكذلك فعل الملك الاشرف قايتباي
فأمر بتعمير عين مكة وعين عرفات سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م ، وكذلك
عمر عين حنين^(١) حتى وصلت مياهها الى مكة وعمر أيضا
عين خليس وأجرى الماء بها .

وفي سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م عمر قاصوه الفوري أخـ
ملوك الجراكمة بمصر عين حنين حتى جرت وملا بركة الهملس
وماجنى في درب اليمين بأفـل مكة .^(٢)

(١) منبع هذا العين في ذيل جبل شاهق يقال له " طاد " في
طريق الطائف من مكة ، وكانت تسمى هذه البقعة حائط
حنين وهو موضع غزا فيه النبي صلى الله عليه وسلم
غزوة حنين .

ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢١١
(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢١٦ / ٢١٧

مواكب الحج والعناية بسنة

ومن مظاهر الاحتفال بالحج والاهتمام والعناية به في مصر ، تلك الاستعدادات التي تحق مواكب وقوافل الحجاج .
وتمدنا المصادر بوصف رائع لتلك الاستعدادات التي تسبق مواكب حج الملوك والسلاطين في عصر المماليك - والذي هم عادة محل اهتمام المؤرخين القدماء والحديثين - فعندما تتحرك الرغبة لدى هؤلاء لحج بيت الله الحرام تخرج أطلاب^(١) السلطان من أرجاء المملكة وفيها الخيل والهنج^(٢) باكب^(٣) والذهب والجلال من الذهب والفضة وجميع المقاول^(٤) والمخاطم^(٥) والآلات من الحرير الملون المحكم الصنع ، وتصنع القدور من الذهب والفضة والنحاس تحمل على البخاتي^(٦) ليطح فيها ، ويقوم الخولة^(٧) بعمل مياقل ورياحين ومشمومات في أحواض

(١) طلب والجمع أطلاب : لفظ كردي كان معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق أيضا على قائد المائة ، وكان أول من استعمل هذا اللفظ بمصر والثام أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة في الجيش .
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ هامش ٢
د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والثام ص ٤٢٢

Dozy : Supp : Dic : Ar

- (٢) الهجن : جمع هجين وهو من الخيل الذي ولدته الفرس من حصان عربي .
(٣) أكوار جمع كور : وهو الرجل يوضع على ظهر الخيل أو الأبل ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥٨ هامش ١
المقريزي : الذهب المسبوك ص ١٠٠ هامش ٣
(٤) المقاول جمع مقود : وهو الحبل الذي يشد في الزمام أو اللجام تقاد به الدابة .
(٥) المخاطم جمع خطام : وهو الحبل الذي يقاد به البعير .
(٦) البخاتي : جمال طوال الأعناق .
(٧) الخولة : المراد العبيد والخدم .

خشب تحمل على الجمال فتسير مزروعة وتسقى على طول الطريق بواسطة هؤلاء الخوله ، ويؤخذ منها كل يوم ما تدعو الحاجة اليه من البقل والكرات والكسبرة والنعناع والريحان وأنواع المشومات . والى جانب ذلك يتم تجهيز الأفسران وقلاش الجبن وصناع الكماج^(١) وغيره ، ويحمل الفريان الشعير والنميد والبشماط^(٢) . ومن أطراف الدولة بالشام تشمل الحلوى المصنوعة من السكر النقي والسكر دانان^(٣) والفواكة والحريرمان واللوز ، وما يحتاج اليه من أصناف البطيخ كطيور الاوز والدجاج بكميات هائلة . ويجهز مركبين فسسى البحر الى ميناء ينبع وآخران الى جدة ، ويكتسب أوراق تكاليف الغليق من الشعير للأبل والهجس والخيل باسماء اثنين وخمسين أميرا ، منهم من له في اليوم مائة عليقة ومنهم من له خمسون وأقلهم من له عشرون عليقة . فكانت جملة الشعير المحمولة مائة وثلاثين ألف أردب ، وهذا الرقم يوضح لنا العدد الكبير للأبل وغيرها المصاحب للقافلة .

ويتفنن الغلمان ويبدون من صنائعهم العجائب والغرائب في حسن ترتيب الموكب ، فيعدون عشرين قطارا^(٤) من الهجن

(١) الكماج : مقردها كماج ، كلمة فارسية معناها خبسن

بخير خميرة من الدقيق الابيض الخالص ويخير على الرماد .

المقريزي : الذهب المسبوك ص ١٠١ هامش ٢

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥٨ هامش ٣

(٢) البشماط : البشماط

المقريزي : الذهب المسبوك ص ٩٠ هامش ٤

(٣) السكردان : لفظ فارسي معناه الوعاء المستعمل لحفظ الحلوى

المقريزي : الذهب المسبوك ص ١٠٢ هامش ١

(٤) القطار : أن تقطر الأبل بعضها الى بعض على نسق واحد

وبعدد معين .

بقيماش من ذهب أكوارها وعرفياتها^(١) وحطماها^(٢) حرير مزركش
وخمسة عشر قطارا يعنى حرير ، وقطار بقماش أبيض برسم
الاحرام ، ومائة قرص عليها من السروج والكنافيش^(٣) وكجاوشين^(٤)
ومحفا^(٥) الحرير مزركش ، وستة وأربعين جملا محابر^(٦) باغشيمة
الحرير ، وخزانة المال على عشرين جملا .

وهذا الموكب يتم تجهيزه فى ريباقوس^(٧) ويتولاه ناظر
الخاص^(٨) وعندما يتحرك هذا الموكب يتقدمه السلطان وأكابر

- (١) عرفياتها : عرف الديك والفرس والندابة وغيرها ، منبت
الشعر والريش من العنق .
- (٢) حطما : ربما قصد بها الدروع أو الكوة .
المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٢٧٢ هامش ٣
- (٣) كنفوش وجمعة كنافيش ، وهو خمار لتغطية الوجه ، وأطلق
اللفظ أحيانا على البردعة توضع تحت سرج الفرس ، وقد
حرف اللفظ أيضا الى كنفوش وكنافيش .
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١٩ هامش ٦
- (٤) د. سعيد عاشور : العصر للمماليكى فى مصر والشام ص ٤٤٥
الكجاوة : كلمة فارسية معناها هودج النساء .
المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٢٧٣ هامش ١
- (٥) المحطة : هى كرىبان من الخشب اذا فُما الى ظهر الجمل
جلس فيهما راكبان على حشال جلوسهما على الكراسى ووجههما
الى رأس الجمل .
البتوتى : الرحلة الحجازية ص ٢٠٧ هامش ١
- (٦) محابر : جمع حبره وهى ماكان من المرود مخططا .
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٢ هامش ١
- (٧) ريباقوس : قرية مصرية قديمة ، وهى الآن من قرى مركز
شين القناطر بمديرية القليوبية وتقع على الشاطئ الشرقى
لشعبة الاسماعيلية شمال القاهرة وعلى بعد ١٨ كيلومترا منها
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٧٩ هامش ١
- (٨) الناظر وجهه نظار : وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين
وناصر الخاص ينظر فى خاص أموال السلطان .
د. سعيد عاشور : العصر للمماليكى فى مصر والشام ص ٤٥٨

الامراء وقضاة القضاة وقاضى العسكر والنظار وكاتب السنين
وعده من أجناد الطقة ومماليك السلطان حيث ينزلوا ببركة
الحاج^(١) ومنها يتخذون طريقهم الى الأراضى الحجازية .
وعندما يدخل الموكب مكة يظهر البلاطين من التواضع
والذلة أمرا زائدا ويسجدون سجود العبد الخاضع ويصيرون
كآحاد الناس لا يحجبهم أحد ولا يحرهم الا الله ، ويمسرون
منفردا يطوف ويسعى وحده فلا يعرفه الا من يعرفه ، ويكون
بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم .

ويروى عن السلطان الناصر محمد عندما حج فى سنة
١٣١٩/٥٧١٩ م وأستقبل الكعبة ألتقت الى أحد أمرائه وقال
" لا زلت أعظم نفسى حتى رأيت البيت فذكرت تقبيل الناس
الأرضى ، فدخل قلبى مهابة عظيمة لم تنزل حتى سجدت
لله تعالى شكرا " وغسل السلطان الكعبة بنفسه وصار
ياخذ أزر احرام الحجاج ويفلها لهم داخل البيت بنفسه
ثم يدفعها لهم ، وتقدم اليه قاضى القضاة وحسن له أن
يطوف راكبا فان النبى صلى الله عليه وسلم طاف راكبا
فقال " يا قاضى ومن أنا حتى أشبه بالنبى ؟ والله لا طفت
الا كما يطوف الناس ، فطاف من غير أن يكون معه أحد ممن

(١) بركة الحاج أو بركة الجب : متنته بظاهر القاهرة من
بحريها ، وكان ملاح الدين الأيوبي يبرز اليها للصيد ،
ويقام فيها الأيام وفعل ذلك الملوك قبله وبعده ويسمى
العامة فى زمن المقريزى - القرن الثامن للهجرة - بركة
الحاج لتزول الحجاج بها بعد سيرهم من القاهرة ونزولهم
اليها عند العودة ومنها يدخلون الى القاهرة ، ومن الناس من
يقولون جب يوسف وهو خطأ ، وإنما هى أرض جب عميره وعميره
هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى نسبت اليه هذه الأرض فقل لها
أرض جب عميره . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٨٢
الطوك ج ١ ص ٥٨ هامش ٢
الذهب المسبوك ص ٩٧ هامش ١

الحجاب ، فصار الناس يزاحمونهم ويزاحمهم كواحد منهم حتى
قضى طوافه وسعيه . وكان قد بلغه أن جماعة من المفـول
من حج قد أختفى خوفا منه ، فأحضرهم وأنعم عليهم وبالسـغ
في أكرامهم ، وفرق في أهل مكة مالا عظيما وأفاض التشاريـف
على أمرائها وأرباب وظائفها وأمير ينبع وأمير خـليص ،
وأجتمع عند السلطان من العربان ما لم يجتمع لملك قبلـة ،
وأمرأء مكة والمدينة وأشـرافها .

وجرى العربان على عاداتهم العربية من غير مراعاة
الآداب الملوكية وهو يحتملهم بحيث أن أحدهم وهو موسى
بن مهنا قال للسلطان " يابا على بـحياة هذه - ومد يده الى
لحية السلطان ومسكها - الا أعطيتنى الضيعة الفلانيـة؟
فصرخ فيه الفخرناظر الجيش وقال " ارفع يدك قطع الله يـدك،
والك تمد يدك الى السلطان " فتبسم السلطان وقال " يا قاضي
هذه عادة العرب اذا قعدوا كبيرا في شـيء يكون عظمتـة عندهم
ملك ذقتـه - يعنى أنه قد استجار به ، فهو عندهم سنـة " فقام
الفخر مغضبا وهو يقول " والله ان هؤلاء مضاحيـس وسنتهم
أنحر منهم لا يبارك الله فيهم " - وهذا ان دل على شـيء
فانما يدل على بساطة السلطان وتواضعه أثناء تأدية منامك
الحج .

ثم تتوجه للقافلة بعد ذلك الى المدينة المنورة لزيارة
ضريح النبي . ومن هناك يقدم المبشرين^(١) يخبرون بسلامة
الحجاج وكثرة الامن والرخاء وقرب وصولهم وحسن سيرهم .
وعند عودة الموكب ينزل بركة الحاج . فيخرج الامراء
الى لقاءه بها فيمد سماط عظيم^(٢) . وبعد انقضاء السماط
يتوجه الراكب في طريقه الى القلعة في موكب مهيب ترفع
فيه الرايات العظيمة من الحرير الاصفر مطرزة بالذهب عليها
القاب السلطان واسمة وسائر دست السلطنة . وهم بالخلع
وعدد كبير من التشاريف منها الاطلس والكنجسي^(٣) .

(١) قدوم المبشر سابقا ليخبر بسلامة الحاج . كان منذ عهد
الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن
بعدهم ، وله حكمة لطيفة قل من يعرفها ، قال الحافظ
عماد الدين بن كثير في تاريخه عن قصة حصار عثمان
واستمراره حتى مضت أيام التشريق ، ورجع البشير من الحج
فأخبر بسلامة الناس ، وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عارمون
على الرجوع الى المدينة ليكنوهم عن أمير المؤمنين .

وأخرج مالك في الموطأ أن رجلا من جهينة كان يشتري
الرواحل فيتغالي فيها ثم يجرع السفر فيسبق الحاج فافلس .
فرفع أمره الى عمر : فقال أما بعد ، أيها الناس ان الاسيقع
اصيقع جهينة رضى من دينه وأمانته أن يقال سبق الحاج
الأوانه أذان معرضا فأصبح وقد دين به فهدم . فمن كان عليه
دين فليأته بالقدادة ، فقم ماله بين غرمائه ، ثم كمل الدين
وأخرج الخطيب البغدادي في تالي التلخيص من طريق عبد الملك
بن عمير عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، قال تخرج الدابة
من جبل أجياد في أيام التشريق والناس يمشى ، قال : فلذلك
جاء سابق الحاج يخبر بسلامة الناس .

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٠

(٢) السماط : المائدة ما يسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس
الأكليين .

د . سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٢٦

(٣) الكنجي : القطني وهو نسيج من الحرير والقطن كان يضع

يادى أمره في مدينة كتجة من إقليم ايران .

ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٦١ هامش ٢

وتزين القاهرة ومصر زينة عظيمة ، ويكثر أرباب الملاهي
من الطبول والزمور . ويجلس السلطان على تخت الملك لتلقى
التهانى ، ويخلع على سائر الامراء وأرباب الوظائف وامراء
العربان الخلع العظيمة ، فيكون يوما مشهودا . (١)

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ما رواه المقرئى عمن
قافلة الحاج أيام الغاطميين بقوله " ان المنفق على
الموسم كان فى كل سنة تسافر فيها القافلة مائة وعشرين
الف دينار منها ثمن الطيب والطوى والشمع راتما فى
كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواطميين
الى الحضرة أربعون ألف دينار ، ومنها فى ثمن الحمايات
والمدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العمركية وكبير
الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار
وأن النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد رادت فى
كل سنة وبلغت الى مائتى ألف دينار ولم تبلغ النفقة على
الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول . (٢)

-
- (١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٩٥/١٩٦/١٩٧/١٩٨/٢٠٠/٢٠١
ج ٢ ص ٢٧٢/٢٧٣/٢٧٤/٢٧٥
الذهب المسبوك ص ١٠٠/١٠١/١٠٢/١٠٣/١٠٤/١٠٥/١٠٦
ابن تفرى بردى : النجوم الزهراء ج ٩ ص ٥٨/٥٩/٦١
(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٩٢
البستونى : الرحلة العجازية ص ١٤٤

امارة الحج

وكانت هناك وظيفة تتعلق بنظام الحج والاشراف على الحجاج في تنقلاتهم وقضاء مناسكهم وهي امرة الحج يتولاها من يسمى أمير الحج ، والاماره في معناها هي القيادة لما يتبعها من واجبات واعباء تقتضيها تلك الوظيفة . فرحمة الحج كان لها وجهها العسكري لما يتطلبه الامر من التغلب على المصاعب التي تواجه الحجاج في ذهابهم وايابهم نظرا لطول الطريق وخطورته ومشقة السير فيه فقد كان الامر لا يخلو من وجود قطاع الطرق مثلما حدث عندما خرج بعضهم على الحجاج بطريق المدينة المنورة وقتلوا منهم طائفة^(١) . فكان على أمير الحج - نظرا لكثرة عدد الحجاج وتنوعهم - ان ينظم امورهم ويكفل راحتهم ويحسم خلافاتهم ، من ذلك ما يرويه المقرئزي أنه سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م قام أمير الحج عند رحيل الحجيج من بركة الحاج بترتيبهم لسيروا قطارين متحاذيين . وجعل الحاج ناسا بقدر ناس ، وكان الحجيج يسيرون كيف شاءوا ، فاذا وصلوا مضيق وقف أمير الحجيج بنفذة ليشرف على ميرهم فيسيروا قطارا أو قطارين بحسب الاصول حتى ينتهوا من المضيق بغير قتال ، ذلك أنه عندما تقل عناية امراء الحج ويصير الناس في المضائق يفضى بهم الحال الى القتال واساله الدماء وكسر الاعضاء وغلبة الاقوياء على الضعفاء^(٢) . كما كان أمير الحج يقوم ببعض

(١) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٢٧٥

(٢) المقرئزي : السلوك ج ٤ ص ٥٢

الأعمال الأخرى ، من ذلك عندما أشتكى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة في سنة ١٢٩٩/٥٨٠٢ م إلى أمير الحج المصري من الأمير بييق أمير الرجبية والمتحدث في عمارة الحرم وأن العبيد هموا بقتله لثقله عليهم ، فاستدعاه وأطاح بينه وبينهم ، وأقام بمكة لستم عمارة الحرم (١) .

ومن هنا تأتي أهمية امارة الحج ، والمعروف أو ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا يقام الدين ولا الدنيا الا بها ، فان الناس لا تتم مطاحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من كبير حتى قال النبي " اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " . وقال عليه الصلاة والسلام " لا يحل لثلاثة يكونوا بفلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم " . فأوجب تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر ، فتعين بذلك التأشير على حجاج بيت الله الحرام شرعا وهم في الغالب جمع كثير (٢) .

وقد جاء في كتاب درر الخرائد أن أمير الحج في أواخر القرن العاشر - كان يعينه السلطان ليلة المولد النبوي الشريف ، فإذا ما اجتمع الأمراء لدى السلطان ليلة الثاني عشر من ربيع الأول لسمعوا القرآن ويحیی وقت ادارة الشراب الحلال على الحاضرين ، يبدأ الساقى بالسلطان فيشرب من كوبه يسيرا ، ثم يأمر بالباقي الى من يريد أمير الحج ، فإذا ما أعطى الكوب عرف أنه الأمير ، فقام للسلطان شاكرًا وعسرف

(١) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٩٨٠

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٩٦/٢٩٧

الحاضرون ، فقاموا للأمير مهنيين ، ومن ذلك الوقت يعهد
عدته للسفر دون أن يكون له قانون معين يدير عليه ، ويساعده
علي أداء عمله أصحابه ومحبوه فيقدمون له المال والغلال
والهدايا . وللأمير في نفوس الناس مكانة سامية وجاه عظيم
حتى كانوا يتقربون إليه بمراعاة خدمه وغلماته . والى جانب
ذلك كان للأمير أعوان يساعدونه على القيام بما عهد إليه ،
فمنهم الدوادار ، وهو يتوب عن أمير الحج فن المسائل التي
لا يتولاها بنفسه أو تكبر فيها المثقة كتسهيل الطرق والطواف
على الحجاج ليلا أو نهارا اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وتتبع
الصوص والمفسدين بأن يعين أحد شجعتان المسكر الذين عرفوا
بالعقل والمرؤة والسياسة والفروسية والديانة .

ويعين السلطان " كاشي ديوان امرة الحج " ووظيفته
قيد مايرد لامير الحج من الهدايا وغيرها . ومنهم العسس
الذين يطوفون ليلا مع الحجيج يتعرفون الاخبار ويمنعون
معاها يقع من النزاع (١) .

وأمر الحج عليه واجبات ذكرها الماوردي في كتابه
الأحكام السلطانية فذكر أن الولاية على الحج ضربان : أحدهما
ان تكون على تسيير الحجيج ، والثاني على اقامة الحج .

فأما تسيير الحجيج فهو ولاية سياسية وزعامة وتديير ،
والشروط المعتبرة في الولي أن يكون مطاعا ذا رأى وجماعة
وهيبة وهداية حتى يستطيع أن يواجه المواقف الطارئة ويحم
الخلافتان الناشئة ويسيطر على الاضطرابات العارضة . والذي
عليه في حقوق هذه الولاية عشرة أشياء :

(١) ابراهيم زفعت : مرآة المرمين ج ٢ ص ٢٠٢/٢٠١

- ١ - جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يبتفرقوا فيخاف عليهم التواضع والتفريغ .
- ٢ - ترتيبهم في السير والنزول بإعطاء كل طائفة منهم مقادا حتى يعرف كل فريق مقاده اذا سار ، ويألف مكانه اذا نزل فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه .
- ٣ - يرفق بهم في السير حتى لا يعجز ضعيفهم ولا يضل عنده منقطعهم .
- ٤ - أن يملك بهم أوضح الطرق وأخصبها ، ويتجنب أجدبها وأوعرها .
- ٥ - أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعى اذا قلت .
- ٦ - أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم اذا رحلوا حتى لا يتخطفهم داعر^(١) ولا يطمع فيهم متليمس .
- ٧ - أن يمنع عنهم من يمدهم عن السير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال أن قدر عليه او ببذل مال أن أجساب الحجيج اليه ، ولا يسهه أن يجبر أحدا على بذل الخفارة^(٢) ان امتنع منها حتى يكون باذلا لها عفوا أو مجيبا اليها طوعا ، فان بذل المال على التمكين من الحج لا يجب .
- ٨ - أن يطرح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ولا يتعرض للحكم لهم اجبارا الا أن يفرض الحكم اليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم ، فايهما حكم نفذ حكمة ، ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لا يحكم بينهم الا حاكم البلد .

(١) الداعر : الخبيث الشرير الذي يسرق ويؤذي الناس

(٢) الخفاره : المنعة والامان بإعطاء المال نظير لها

٩ - أن يقوم راعهم ويؤدب خائهم ولا يتجاوز التفريط الذي
الحد الى أن يؤذن له فيه فيستوفيه ان كان من أهل
الاجتهاد فيه .

١٠ - أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن الغوات ، ولا يلجئهم
ضيقة الى الحث في السير ، فاذا وصل الى الميقات
أمهلهم للاحرام واقامة سننه ، فان كان الوقت متسبعا
عدل بهم الى مكة ليخرجوا مع أهلها الى المواقف ، وان
كان الوقت ضيقا عدل بهم عن مكة الى عرفة خوفا من
ثواتها فيفسوت الحج بها .

ثم يكون في عوده بهم ملتزما فيهم من الحقوق ما التزمه
في طردهم حتى يصل بهم الى البلد الذي سار لهم
فتنقطع ولايته عنهم بالعود اليه . (١)

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٩٣/٩٤/٩٥

المحمل وخروجه

المحمل أعواد من خشب على شكل اليهودج ، شكله مربع ذو سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب الى الوسط الذى فيه قائم ثم ينتهى بهلال . وفى العادة يسدل على ذلك الهيكل الخشبى كسوة قد تكون من الحرير أو من غيره ، ويوضع أثناء السفر على ظهر جمل . وقد جاء فى كتاب الكثر المدفون للسيوطى : أن أول من أحدث المحامل فى طريق مكة هو الحجاج بن يوسف الثقفى . وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة . وقد يرسل الله محملا الى الكعبة بهداياه الى البيت المعظم . (١)

والمحمل المسمى من قديم الزمان تصحبه كسوة الكعبة (٢) وما يلزم الحرمين والصدقات التى توزع على فقرائها .

والمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير وشأن عظيم منذ أيام الدولة الايوبية ، وكانت مرتبة أميره فى المرتبة الثالثة من مراتب الدولة خاصة فى عهد المماليك حيث كان يلى نائب السلطنة وله رأى مسموع وكلمة محترمة ويتولى وظيفته بأمر السلطان وله المكانة العالية والكلمة النافذة فى بلاد الحجاز وكثيرا ما كان يصدر أوامره بعزل وتولية أمراء مكة . (٣)

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٣٠٤

البئنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٠

(٢) عن كسوة الكعبة ، انظر الفصل التالى

(٣) البئنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٤/١٤١

والاحتفال بخروج المحمل يتم فى السنة مرتين وهو ما يسمى بدوران المحمل ، وأول من أحدث ذلك بالديار المصرية السلطان الظاهر بيبرس فى أيامه طيف بالمحمل وبكسوه الكعبة العشرفة بالقاهرة سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م^(١) ولم يعهد ذلك من قبل .

وخروج المحمل فى المرة الأولى يكون بعد منتصف شهر رجب والثانية فى نصف شوال ، ويكون دورانه فى يوم الاثنين أو الخميس دون باقى الأيام ، وينادى لأصحاب الحوانيت التى فى طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام ، ويوضع المحمل على جمل وهو فى هيئة لطيفة وعليه غشاء من حرير أظفر بأعلاه قبة من فضة مطلية ، ويبعث فى ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ، ويحمل بعد الصبح على نفس الجمل^(٢) ويسير الى باب القلعة حيث يبدأ مركب دورانه ، ثم يتوجه الوزير والقضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء وأرباب الوظائف وناظر الكسوة وغيرهم التى القلعة فيخرج اليهم المحمل على الجمل وأمامه الأمير المعين لحفر الحجاز ومعه عمـكـره والسقاين على جمالهم ، ويركب جماعة من المماليك السلطانية من الرماحة مرتدين المصفات الحديد المفضاة بالحريز الملون وخبولهم عليها البركتوانات^(٣) والوجوه الفولاذ كما فى

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨

المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١

على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٩

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٧

(٣) بركتوان : ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع ويمسـى (بركتوان)

د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٩٦

القتال وبأيديهم الرماح فيلمبون تحت القلعة كما في حالة الحرب . ومثهم جماعة صفار بين كل منهم رمحان يديرهما في يده وهو واقفا على ظهر الفرس ، وربما كان وقوفه في نعل من خشب على ذباب^(١) سيفين من كل جهة وهو يفعل كذلك^(٢) . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل شوارع القاهرة والحدادة يحدون أمامهم والطيخانات^(٣) والكوسات^(٤) السلطانية تضرب خلفهم ، ثم يعود الى القلعة ثم يحمل الى جامع الحاكم ويوضع في مكان هاديء حتى شهر شوال حيث يتم دورانه الثاني في النصف منه ، وبعد انتهاء دورانه هذه المرة يتخذ طريقه الى مكة^(٥) .

ومما يجدر الاشارة اليه أنه في سنة ٨٢٨هـ / ١٤٣٤م أثناء حكم السلطات برسباي كان دوران المحمل بمصر والقاهرة في الثامن من شهر رجب واستمر ذلك في عهد هذا السلطان .^(٦)

وأثناء هذا الاحتفال تزين شوارع القاهرة ويكثر^(٧) الناس البيوت والحوانيت والسطوح ليشاهدوا المحمل واحتفال خروجه ودورانه .^(٨)

-
- (١) ذباب السيف : طرفه وحيد
 - (٢) لعبت مماليك الملك المنصور قلاوون بالرماح والطلاخ وهو أول ما وقع بالديار المصرية في عهده .
السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٠
 - (٣) الطيخانات : من يدقون بالطبول
 - (٤) الكوسات : مقرها كوسة وهي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بإحدها على الآخر بإيقاع مخصوص .
د. سعيد عاشور : العصر السماليكي في مصر والشام ص ٤٤٥
 - (٥) القلقشندي : أصبح الاعشى ج ٤ ص ٥٨
 - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٦
 - (٦) المقريري : السلوك ج ٤ ص ٩٤٠
 - (٧) يكثرى : من الكراء وهو أجر المتاجر ، والممراد يتاجرون البيوت وغيرها .
 - (٨) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٢

ومما يلفت النظر ما جرت عليه عادات الناس أثناء دوران المحمل وهو احضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ويلمسوه فيبارك لهم في ذريتهم ، وكانوا اذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بفناديلهم الى خدام المحمل بعد أن يصفوا فيها بعضا من النقود أو يملئونها باللحوم البيضاء أو القطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ويردونها الى أربابها بعد امرها على المحمل . والذي دعا العامة الى ذلك ما يعلمونه من أن المحمل يوضع داخل المسجد الحرام ، كما يوضع في المقصورة حول قبر الرسول ، فيريدون التبرك بمخمل يزور الأماكن المقدسة^(١) . وكان للمحمل فيما مضى قاضي يفصل بماتقضى به الشريعة الاسلامية فيما يجد من الحوادث بين الحجاج ، وكان يتولى هذه الوظيفة في أيام المماليك الجراكمة (٧٨٤ - ٩٢٣هـ ١٣٨٢ - ١٥١٦ م) قاضي من قضاة المذاهب الأربعة يعينه قاضي قضاة مذهبه بناء على طلب امير الحج .^(٢)

ولقد بلغ من اهتمام ملوك مصر بالاحتفال بالمحمل أنهم أمروا جميع حكام البلاد التي يمر عليها المحمل في طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله ، وما زال امراء مكة يقبلونه أيضا في استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م . فكان اذا وصل المحمل الى ظاهر مكة خرج أميرها لملاقاته ، فاذا وافاه ترحل عن فرسه وأتى الجمل الحامل للمحمل فقلب خف يده وقبله خدمة لصاحب مصر .^(٣)

-
- (١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٣
(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٣٠١
(٣) القلشندى : صح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٧

وفي أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبي وباب السلام بكموته اليومية^(١)، فيكون هناك مزارا للناس على اختلاف أجناسهم ولا ينقلونه من هذا المكان الا في مواكبهم الرسمية وعند السفر به الى المدينة المنورة .

وعند وصول المحمل الى المدينة يدخلها باحتفال كبير من باب المنبرية حتى اذا وصل الى الباب المصري ترجل كل من في موكبه اجلالا لمقام الرسول الكريم ، فاذا وطوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهناك يرفع المحمل ويوضع في مكانه من الحرم غربي المنبر الشريف ، وترفع كموته المزركشة ويلبسونه الكعوة الخضراء ، ويلبسون أمير الحج ومن معه لباس الخدمة في الحجرة الشريفة (وهو عمامه وفرجيه بيضاء مشدود عليها حزام ابيض) ثم يحملون كعوة المحمل بكل تواضع واحترام ويدخلونها في الحجرة الشريفة ، ولإتزال الكعوة بالحجرة الشريفة حتى تخرج يوم سفر المحمل من المدينة . ويوكبون بها في يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله .^(٢)

وقد روى ابن النجار في تاريخ المدينة المنورة عن حسين بن مصعب أنه أدرك كعوة الكعبة يؤتى بها المدينة قبل أن تصل الى مكة فتنتشر على الرضراض^(٣) في مؤخر المسجد ثم يخرج بها الى مكة وذلك في سنة ١٣١ أو ١٣٢ هـ^(٤).

-
- (١) للمحمل المصري كموتان : كموته اليومية وهي من القماش الاخضر ، وكموته المزركشة ويلبسونها في المواكب الرسمية .
البيتنوني : الرحلة الحجازية ص ١٤٢
(٢) البيتنوني : الرحلة الحجازية ص ١٤١ / ١٤٤
(٣) الرضراض : الحصى الذي لا يثبت على الارض
(٤) القلقشندي : صبح الامشي ج ٤ ص ٢٧٧

وعند عودة المحمل يحتفل بقدمه رسميا احتفالا كبيرا ،
واستمر ذلك بمصر الحديثة ، ومن عاداتهم عمل أحواض كبيرة
من الماء المحلى بالسكر يشرب منها الفادون والرائحون
مدة ثلاثة أيام وهي عادة قديمة جدا أخذوها عن السلف (١)

(١) البتورنى : الرحلة الحجازية ص ١٤٤

كسوة الكعبة

كان العرب يقدسون الكعبة في الجاهلية والاملام ، وعملوا على تجميلها وكسوتها بالاقمشة المختلفة ، فكسيت في الجاهلية الانطاع^(١) ، وأول من كساها أبعده أبو بكر ملك حمير حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة وبعد أن رأى في منامه أن يكسوها ، فكساها بالبرود المقصصة وعمل لها بابا ومفتاحا .

ولما بنت قريش الكعبة استترفدهم بناؤها لكسوتها ، فعملوا لها كساشي من أنواع الثياب ، كلما جاءت كسوة طرحت على سابقتها ، ولم تنزل قريش تكسو الكعبة حتى كان زمن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي وكان ثريا فقال " أنا أكسو الكعبة وحدي سنة وجميع قريش سنة " فكان يفعل ذلك حتى مات . فحمته قريش العدل لانه عدل فعلمه يفعل قريش في كسوة الكعبة .^(٢)

حتى كان عهد النبي فكساها بالثياب اليمانية ، فلما ولي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كان طيعية أن يتجهوا الى مصر لتمدهم بهذه الكسوة ، فكتب الخليفتين الى مصر لتحياك فيها كسوة الكعبة من بيت المال ، فكسيت بالقباطي المصرية^(٣) ،

-
- (١) الانطاع : جمع نطع وهو الجلد
(٢) القلقندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٧ / ٢٧٨
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨١
البتشوني : الرحلة الحجازية ص ١٣٤
(٣) القباطي : جمع قبطية بالضم وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض وكانه منسوب الى القبط .
المقريزي : الذهب المسبوك ص ٤٢ هامش ١
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٢ هامش ١
محمد عبد العزيز مرزوق : كتاب الزخرفة المنسوجة في الاقمشة الفاطمية ص ١٦

وكساها عبد الله بن عمر بما كان يجلب به بدنه من القباطي
والحبرات والافساط . (١)

أما معاوية بن أبي سفيان فقد كساها كسوتين : كسوة
عمر القباطي ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم
عاشوراء وتكسى بالقباطي في اليوم التاسع والعشرين من
شهر رمضان . (٢)

وروي الواقدي عن اسحق بن عبد الله أن الناس كانوا
ينثرون كسوة الكعبة ويهدون اليها البئدن^(٣) عليها الحبرات ،
فيبعث بالحبرات الى البيت كسوه ، فلما كان يزيد بن معاوية
كساها الديباج الخسرواني ، وكذلك فعل بن الزبير ، فكان
يبعث الى أخيه ممعب بن الزبير بالكسوة كل سنة لتوضع
عليها يوم عاشوراء .

أما عبد الملك بن مروان فكان يبعث في كل سنة بالديباج
من الشام فيمر به على المدينة ، فينشر يوما في مسجد
الرسول ثم يطوى ويبعث به الى مكة . (٤)

(١) الافات : جمع فط وهو نوع من البساط

(٢) المقريزي : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٩

(٣) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٢
بئدن وبئدن مفردتها البئدة ، من الابل والبقر كالأضحية من
الغنم تهدي الى مكة الذكر والانثى في ذلك حواء ، سميت بذلك
لانهم كانوا يسمونها ، وفي القرآن الكريم " والبدن جعلناها
لكم من معاشر الله "

المقريزي : الذهب المسبوك ص ٩ هامشه

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٩

ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٢

البتنوني : الرحلة المجازية ص ١٣٤

وجاء العباسيون فكانوا يبالبون في العناية بكمسوة الكعبة ويهتمون بها اهتماما رائدا . ففي سنة ١٦٠هـ/٧٧٦ م حج الخليفة العباسي أبو عبد الله محمد المهدي ، فذكر له السدنة أن كساوى الكعبة كثرت عليها والبناء ضعيفا يخشى عليه من ثقلها ، فأمر بتجريدها والاكتفاء بالكمسوة الجديدة ، وهذا يشير الى أن الكسوات القديمة لم تكن تنزع عن الكعبة حتى عهد المهدي . (١)

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٩
المقريزي : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٢

وكانت كسوة الكعبة توضع في دور الطراز بالمدن المصرية وخاصة تنيس (١) وشطا (٢) وتونة (٣) ودمياط . وقد روى الفاكهي في أخبار مكة أنه رأى بعض هذه الكسوات وعليها نصوص تفيد أنها صنعت بهذه الدور ، فعنها ما صنع في عهد المهدي . قال " رأيت كسوة من قباطن مصر مكتوبا عليها " باسم الله

(١) تنيس : كانت من أجل المدائن بالقرب من دمياط ، وكان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع وماثني ذراع ، وكان عرضها من الشرق الى الغرب ثلاثة الاف ذراع وخمسة وثمانين ذراع ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالمديد وكان بها نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ست وثلاثون حماما ، وبها أيضا معصرة للزيت والسيرج والقصب ، وكان بها من الهناج للقماش نحو خمسة آلاف متسع يصنعون به الثياب الريفية التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البندى تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمقدار مائة دينار يحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب . ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقا جماعة من الفرنجة فحاصروها ، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى دمياط وتركوا المدينة فاستولوا عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ، ثم ألغوا فيها النار فتأخرت كلها ، وأخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك الى سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ م في دولة الكامل محمد الأيوبي ، فأمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن .

انظر : ناصر خسرو : سفرنامه

(٢) شطا : مدينة عند تنيس ودمياط وإليها ينسب الثياب الشطوية كما كانت توضع بها كسوة الكعبة ، ويقال أنها عرفت بشطا بن الهاموك ، وكان أبوه خال المقوقس عاملا على دمياط

المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٦٥

(٣) تونة : كانت من جملة عمل تنيس يعمل بها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة .

المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٩٣

من بركة الله ، مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين - أطاحه الله - محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنييس كموة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة ١٥٩ هـ . وقال رأيت كموة من كما المهدي مكتوبا عليها " باسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع في طراز تنييس على يد الحكم بن عبيدة سنة ١٦٢ هـ .^(١) وقال " رأيت أيضا كموة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها " باسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين - أكرمه الله - مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونه سنة ١٩٠ هـ .^(٢)

وقال : " رأيت فيها كموة من كما أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها " باسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه مما أمر به الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطا كموة الكعبة سنة احدى وتسعين ومائة^(٣) وقال

-
- (١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٢
الذهب المسبوك ص ٤٢ هامش ١
البتونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٥ / ١٣٦
(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٢
الذهب المسبوك ص ٤٤ هامش ١
(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٦٥
الذهب المسبوك ص ٤٤ هامش ١
البتونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٦

رأيت كسوة مما يلي الركن الغربي من الكعبة مكتوبا عليها
" مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجوى
بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة
سبع وتسعين ومائة . ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها
الا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود " مما أمر
به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين . (١)

أما عن كسوة الكعبة فى العصر الفاطمى فكانت مربعة
الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها صاغة وأربعة وأربعون شبرا ،
وكان فى حافاتهما اثنا عشر هلالا ذهبيا فى كل هلال أترجسه
ذهبية ، وفى داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى
الكر ، كما كان فيها البياض الأحمر والأصفر والأزرق ، وقد
نقش فى حافاتهما الآيات التى وردت فى الحج بحروف الزمرد
الأخضر وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة ، وكانت هذه
الكسوة معطرة بمسحوق المسك . (٢)

وفى عهد سلاطين المماليك ، قام هؤلاء بدورهم كاملا
بتجهيز الكعبة وإرسالها الى الكعبة . من ذلك عندما عمم
السلطان الناصر محمد على للحج سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩م تقدم الى
كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص بتجهيز ما يحتاج اليه
والمفر الى الاسكندرية لعمل ثياب أظلم يرسم كسوة الكعبة (٣)
الى جانب إرسال مرتبات القاضى والخطيب والائمة والمؤذنين
والفراشين والقومة ، وما يحتاج اليه الحرم الشريف من الشمع
والزيت فى كل سنة . (٤)

(١) المقرئى : الذهب المسبوك ص ٤٣ هامش ١

الخطط ج ١ ص ٢٩٢

البتونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٥ / ١٣٦

(٢) د. حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٥

(٣) هذا نص هام يدل على أن دور الطراز بالاسكندرية بدأت فى
عهد الناصر محمد تصنع كسوة الكعبة .

المقرئى : الذهب المسبوك ص ١٠٠ هامش ١

(٤) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٠٦

أما الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٦/٧٤٣ هـ - ١٣٤٥/١٣٤٢ م) فقد أوقف الأوقاف فاشترى من بيت المال قرى باحوس وسنديين وابي الفيض من قرى القليوبية ووقفها على كسوتى الكعبة والحجيرة النبوية الشريفة .

وفي عهد السلطان برقوق (٧٨٤/٨٠٢ هـ - ١٣٨٢/١٣٩٩ م) كانت كسوة الكعبة تنعج بالقاهرة بمشهد الحسين من الديقاج الاسود مطرزة بكتابة بيضاء من نفس النسيج فيها " ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركما " .

وفي سلطنة الناصر فرج برقوق غير الطراز واستقرت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجا اسود مكتوب فيها باللون الابيض " لا اله الا الله محمد رسول الله " . ثم جعل بعد ذلك ستارة باب الكعبة وتسمى " البرقع " من حرير اسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب^(١)

ومما هو جدير بالذكر أن كسوة الكعبة في العصر المملوكي جاءت بمشابة اعلان لحماية مصر وحكامها على الحجاز . وقد اراد شاه رخ بن تيمور لذك أن ينتزع من ملاطين المماليك مبدأ كسوة الكعبة ، وأرسل لهم عدة طلبات بذلك ، فأرسل الى السلطان برسباي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م برجو السماح لنفسه بكسوتها ، ولكن السلطان وقف منه موقفا عنيدا . ومن الواضح أن برسباي والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ اطماع يريد تحقيقها في الشام والحجاز ، ولاسيما أن حماية الحرمين كانت من الحقوق التي أستاذت بهما

(١) القلقشندي : صح الاعش ج ٤ ص ٢٨١/٢٨٢

حلاطين المماليك وأضفت عليهم صبغة شرعية دون بقية حكام المسلمين. (١)

وعندما تولى الظاهر جقمق عرش السلطنة سنة ١٤٢٨/١٤٤١م اتبع سياسة معتدلة في علاقة مع شاه رخ فسمح له بكمونه الكعبة سنة ١٤٤٣/١٤٤٧م بشرط أن تكون الكموه من الداخل فقط أو تحت كوة السلطان ، وقد بادر شاه رخ بإرسال سفارة تحمل كوته للكعبة ، وإن كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتدوا على أعضاء البعثة القادمة بالكوة . ومن الواضح أن المسلمين لم ينسوا للمفول ما فيهم بالاعتداء الأثم عليهم وعلى الخلافة العباسية ، لذلك كان استياء المسلمين من فكرة قيام أحد حكام المفول بكوة الكعبة . وربما أدى احساس السلطان جقمق بهذا الشعور إلى نزع كوة شاه رخ سنة ١٤٥٢/١٤٥٦ م وبقيت للكعبة كوة سلطان المماليك . (٢)

وقد اشترى السلطان سليمان بن سليم خان عده قرى بمصر أضافها إلى القرى التي وقفها الملك الصالح وهذه القرى هي :

- | | |
|----------------|----------------------|
| ١ - سبلكة | ٢ - ميرو نجنجة |
| ٢ - قريش الحجر | ٤ - منايل وكوم ريجان |
| ٥ - بجام | ٦ - منية الثماري |
| | ٧ - بطاليا (٣) |

ولم تزل موقوفة على ذلك حتى حل وقفها محمد علي باشا في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وتعهدت الحكومة بوضع

(١) د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام

ص ٣١٤ / ٣١٥

(٢) د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام

ص ٣١٦

(٣) انظر نص الوقفية بكتاب مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٥ إلى

الكسوة من مالها الخصاص (١).

ويتبع الكسوة ستارة باب الكعبة من خارجها ، وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف .

وعند اتمام عمل الكسوة يقام لها موكب عظيم في منتصف شهر ذي القعدة من المكان المعروف بمصطبة المحمل الى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه حيث يلتمها مأمور تثقيبها الى المحمل (٢) . ويعقد لهذا الغرض مجلس بحضور نائب قاضي مصر وأمير الحج ويكتب إشهاد شرعي (٣) وهو أثر تاريخي يعرف منه القارئ تفاصيل الكسوة ومادتها ، وهي لا تختلف في سنة عنها في أخرى الا في جودة ماتصع منه .

ويرسل مع الكسوة غلايتان من الثحاس مملوءتان بماء الورد الثقيل لغسيل الكعبة .

وفي مكة تلم الكسوة للقائم بسدانة الكعبة باشهاد شرعي يخضره العلماء والكبراء ، فتبقى في منزله الى صباح يوم عيد الاضحى ، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خاليا من الناس لأن سوادهم يكون يمينى (٤) .

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ٢ ص ٢٨٤

البتتوني : الرحلة الحجازية ص ١٣٦

(٢) المحمل : من فن عهدته المحمل والكسوة

(٣) انظر نص الأشهاد بكتاب مرآة الحرمين ج ١ ص ٧ و ٨

(٤) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٧

البتتوني : الرحلة الحجازية ص ١٣٨ / ١٣٩

أما الحجرة النبوية فليس لها كموة سنوية كما في كموة الكعبة ، بل كلما بليت كموة جددت أخرى ، ويقع ذلك كل سبع سنوات تقريبا وذلك أنها مصونة عن الشمس . وقد حكى ابن النجار في " تاريخ المدينة " أن أول من كسا الحجرة الشريفة الشباب هو الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح ثلاثع بن رزيق وزير العاصد آخر الخلفاء الفاطميين عمل بها ستارة من الديبقي (١) الأبيض عليها الطرز والجامات (٢) المرقومة بالابريسم (٣) الأصفر والأحمر مكتوب عليها سورة يس بأكملها ، ثم بعث الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ستارة من الابريسم البنفسجي عليها الطرز والجامات البيضاء المرقومة وعلى أطراف جاماتها مرقوم " أبو بكر وعمر وعثمان وعلي " . وعلى طرازها اسم الامام المستضيء بالله . ثم عمل الناصر لدين الله في خلافته ستارة أخرى من الابريسم الأسود فعلقت فوق تلك . ثم عملت أم الخليفة الناصر بعد حجها ستارة على شكل ستارة ايها المتقدمة ، فعلقت فوق الستارتين السابقتين .

ولم يزل الخلفاء في كل سنة يرسلون ثوبا من الحرير الأسود عليه علم ذهب يكسى به المنبر . ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستورا على ابواب الحرم ، ولم يزل الامر على ذلك حتى سقوط الخلافة العباسية ، فتولى ملوك الديار المصرية ذلك مع كسوة الكعبة وآخر من عملها الملك الظاهر برقوق (٤) .

-
- (١) الديبقي : نسبة الى ديبق من أعمال مصر تقع بين الفرما وتنيس ، وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من الملابس .
د. حسن ابراهيم حسن : الشاطميون في مصر ص ٢٣٩ هامش ١
(٢) الجامات : علامات أو أشكال معينة مطرزة يوشى بها الثوب
(٣) الابريسم : نوع من الحرير
(٤) القلقشندي : صح الاعشى ج ٤ ص ٣٠٢ / ٣٠٤

طريق الحجاج

أولا : طريق ميناء والقلزم
ثانيا : طريق قوص وعيذاب

امتازت مصر بشواطئها الشرقية الطويلة الممتدة على البحر الأحمر ، وقد حباها الله بهذا الموقع الاستراتيجي أن تكون حمزة الوصل بين جيرانها سكان الجزيرة العربية ، ثم بلاد الهند والصين عبر المحيط الهندي . ويستدل على ذلك بقول المقرئ في وصف مصر اذ يقول " فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ماسواها ، فساحلها بالقلزم ^(١) يحمل منه الى الحرمين وجدة واليمن والهند والصين وعمان والسند ^(٢) " .

وبحر القلزم هو الاسم العربي المعروف للبحر الاحمر ، واشتق الاسم من الاسم القديم clusma بالقرب من السويس ويسمى هذا البحر أيضا بحر الحجاز ، كما يسمى أيضا بحر اليمن وربما هذا يطابق الجزء الجنوبي من البحر الاحمر فقط ^(٣) .

(١) القلزم : موقع على البحر الاحمر قرب مدينة السويس الحالية ، وكان فرضة مصر والشام ومنه تحمل المتاجر الى الحجاز واليمن ، ثم أنه أصبح خرابا زمن ياقوت فتحول طريق الحجاج والتجارة الى موقع السويس .

المقرئ : السلوك ج ١ ص ٧٨

ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٦١/١٥٨

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٢٨

د. أحمد مختار العبادي : البحرية الاسلامية في مصر والشام ص ٢٥٢

(3) Article Bahr of kulsum by : Becker and Reckingham
(in enc. of islam).

ويتشعب البحر الأحمر في شماله الى شعبتين منفرجتين هما خليج العقبة وخليج السويس ، ويبلغ طوله من القلزم حتى باب المنذب نحو ٢٢٤٠ كيلو متر ، كما يبلغ عرضه فسى اوسع نواحيه ٢٥٠ كيلو متر . اما تسميته بالاجمر فهذا يرجع الى زمن الاغريق الذين سموه بهذا الاسم نسبة الى لون الشعب المرجانية الحمراء التى تكثر فيه . (١)

وقد أدى البحر الأحمر دورا هاما فى نقل الحجاج والبريد نظرا لاهتمام الخلافة الاسلامية بتأمين سلامة الحجاج وعمارة الطرق التى يملكونها وتوفير الراحة فيها .

واهتم حكام مصر بمنطقة البحر الأحمر وأسموا سياسة تقليدية شابتة تقوم على تأمين وضمان سلامة الحجاج ، وكثيرا ما دفعت تلك السياسة فى فترات قوة لاطينها الى التدخل عسكريا فى حكم تلك البلاد . (٢)

(١) د. أحمد مختار العبادى : البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٢٥٣
(٢) د. أحمد مختار العبادى : البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٢٥٩

وقد أصبحت سيناء - القلزم طريقا للحجاج بعد إصلاح الطريق وعمارته من مصر الى أيلة (١) ثم الى المدينة المقدسة ، وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور يمارا (٢) فكان الحجاج المصريين يسرون في خليج أمير المؤمنين (٣) الى القلزم ومنها يركبون البحر الأحمر

(١) أيلة بلدة قديمة جدا سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم أول حد الحجاز وكانت مدينة جليلة عامرة منذ زمن مدين على ساحل البحر بها التجارة الكثيرة وأهلها خليط من الناس ، وكانت في مدة سليمان بن داود ميناة كبيرة للمراكب الوافدة الى الشام من اليمن والهند وفارس ولما أتى النبي الى غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه بن رؤبة صاحبها ومالعه وأعطاه الجزية ، وكانت في الامام منزلا لبني أمية وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا قناة الحاج . وفي سنة ٥٦٦ هـ استولى الفرنجة عليها في الحروب الطليبية ولكن صلاح الدين أخذها عنوة وطردهم منها ، وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات ، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع وعدد سكانها قليل وفيها نخيل وأشجار وماؤها حلو ويزرع بها الخضروات وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر .

المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٨٤

البيهقوني : الرحلة الحجازية ص ٣٤/٣٥ هامش ١

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٦

(٣) حيثما فتح العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب زادت الروابط بينهما وبين الجزيرة العربية وزادت أهمية البحر الأحمر . ويتجلى هذا الاهتمام فيما أقدم عليه عمر بإعادة حفر القناة النيلية التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر والتي كانت تبدأ شمال مصر القديمة بقليل وتنشئ قرب مدينة القلزم (السويس الحالية) بغية تسهيل سير السفن بين البحر الأحمر والنيل . وقد ذكرت أسماء مختلفة على الخليج ، فيذكر المقريزي أنه سمي خليج أمير المؤمنين وخليج مصر ، ثم صار يعرف بخليج القاهرة بعد بناؤها على يد جوهر المقلبي ، وأطلق عليه اسم الخليج الحاكمي زمن المقريزي .

المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٤٠ / ١٤٤

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٢٠٢

د. محمد حمدي المناوي : نهر النيل في المكتبة العربية

الى اتجاه ميناء جدة أو يسيرون من القلزم الى أيلة على طرف خليج العقبة . (١)

ويروى المقرئى أن هناك طريقا برياً عبر سيناء كسان يرتاده الحجاج بكثرة وهو طريق أيلة التى كانت عند موقع العقبة الحالية ، فيسير الحجاج من مصر عن طريق البر الى القلزم ، فاما أن يركبون البحر الى الجار (٢) - واسما أن يسيروا الى أيلة ويعددها الى بلاد الحجاز ، وكان هناك ست مراحل (٣) بين القلزم وأيلة . (٤)

وكانت قوافل الحجاج تسير على هذا الطريق على النحو الذى وصفه السيوطى عن ابن فضل ، قال " فيخرج الراكب من مصر بالمحمل السلطانى والزاد والاثربة والادوية والعقاقير والاطباء والكحاليين والمجبرين والادلاء والأئمة والمؤذنين والامراء والجند والقاضى والشهود والامناء فى أكمل زى، واذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً تدق الكومات وينفر النفوس ليؤذن للناس بالرحيل ، فاذا خرج الراكب من القاهرة نزل بالبركة على مرحلة واحدة فيقيم بها ثلاثة أيام أو أربعة ، ثم يرحل الى السويس فى خمس مراحل ، ثم الى نخل فى خمس مراحل ، ثم الى أيلة فى خمس مراحل ، فينزل منها الى حجز بحمص

-
- (١) البتوتى : الرحلة الحجازية ص ٢١
(٢) الجار : هو ساحل المدينة المنورة ، وهى قرية كثيرة القصور والأهل على شاطئ البحر الأحمر فيما بين يوازى المدينة ، ترفأ إليها السفن من مصر والحبشة ، ومن البحرين والصين .
المقرئى : الذهب المسبوك ص ١٥ هامش ٣
(٣) المرحلة : هى المسافة التى يقطعها المسافر فى يومه والجمع مراحل .
(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢١٢

القلزم ويمشى على حجزه حتى يقطعه من الجانب الشمالى الى الجانب الجنوبى ويقوم به أربعة أيام أو خمسة ، ثم يرحل الى حفل مرحلة واحدة ، ثم الى بر مدين فى أربع مراحل وبه مغارة شعيب عليه السلام ، ويقال أن ماؤها هو الذى سقى موسى عليه السلام غنم بنات شعيب ، ثم يرحلون الى عيون القصب (١) فى مرحلتين ومنها الى المويصلة فى ثلاث مراحل ، ثم الى الأزلم فى أربع مراحل ، ثم الى الوجه فى خمس مراحل وماؤه من أعذب المياه ، ومنها الى أكرى فى مرحلتين ، ثم الى الحوراء وهى على ساحل بحر القلزم فى أربع مراحل وماؤه شبيه بماء البحر ، ثم الى نبط فى مرحلتين ، ومنها الى ينبع فى خمس مراحل ، ويقوم عليه ثلاث أيام ، ثم الى الدهنا فى مرحلة ، ثم الى بدر وهى مدينة حجازية فى ثلاث مراحل وبها عيون وجداول وحدائق ، وبها الجار ثم يرحل الى رابع فى خمس مراحل وهى بأزاء الحجفة التى هى الميقات ثم يرحل الراكب الى خليص فى ثلاث مراحل وبها بركة عملها الأمير أرغون التامرى ، ثم الى بطن مرة فى ثلاث مراحل ، وفى طريقه بئر عمقان ثم يرحل من بطن مرة الى مكة المشرفة مرحلة واحدة . (٢)

وكان أمير الحج اذا ما وصل قبيل السويس يرتب القافلة كلا فى مكان معين بجماله وذويه وخدمة ، ثم يجمع الركاب من الطليعة الى الساقة ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يير أصحاب الحمول والأموال وسط الركب .

(١) عيون القصب : منزله فى طريق الحج المصرى ببلاد الحجاز بين العقبة والمويلاج قريبة من شاطئ البحر الأحمر على بعد ثمانين كيلو متر شمالى المويلاج فى مكان يخرج منه الماء بين جبلين فينبت حوله من القصب الفارسى وغيره شئ كثير ولهذا عرفت بعيون القصب .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٧١٠ هامش ٢

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٩ / ٢٢٠

وطريق البر شاق جدا وخصوصا في المنطقة التي يمين السويس والعقبة ، فهي أرض رملية ناعمة تنوع فيها أخفاف الجمال قبل أقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها الى الطريق الا بواسطة نواطير أشبه بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية . وقد كان في بعض القرى الكائنة على الطريق مخازن للميرة وموانئ للجمال . (١)

أما الطريق الأخر الذي سلكته حجاج مصر فهو طريق قوص - عيذاب ، واتخذه غيرهم من المسلمين طريقا يقصدون به الاراضي المقدسة ، اذ كانت مصر ولا تزال الطريق الى حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام في نصف الكرة الارضية الغربية ، باعتبار مكة قلب العالم . فالأندلس الذي كان يسكن في غرب أوروبا ، والمغربى القاطن في غرب أفريقيا وما دونه من مسلمي البربر ، فالسفنال فلاد التكرور والسودان الغربى والشرقى ، كانوا اذا قصدوا الحج سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برا ، ولهذه الغاية كان يقمدها كثير من أهالى الشام والترك والقوقاز وغيرهم من مسلمي روسيا وسيريا وجزائر البحر المتوسط (٢) .

وطريق الحجاج المصريين هو نفس الطريق الذى سلكته الحجاج المقارية والذى يمدنا الرحالة ابن جبير بوصف له عند التحدث عن طريق هؤلاء الحجاج في القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . فيقول أنهم قصدوا مصر عن طريق البحر فوصلوا الى شفر الاسكندرية (٣) ومنها تتوجه القافلة

(١) البتوتى : الرحلة الحجازية ص ٢٢

(٢) البتوتى : الرحلة الحجازية ص ٢٧/٢٨

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٤

الى القاهرة حيث ينزلون بمحمد أحمد بن طولون الذي جعله
السلطان مقرا لجن الحجاج المغاربة واقامتهم اثناء مرورهم
بمصر واجرى عليهم الارزاق فى كل شهر^(١) وعندما يتم اجتماعهم
يسيرون من مصر الى قوص^(٢) يقطعونها برا او عن طريق النيل
فى نحو عشرين يوما ، والقوى فى طريقهم متملة على شاطئ
النيل . فمنها قرية تعرف بـ " أمكر " فى الضفة الشرقية
من النيل يحكى أن فيها كان مولد النبى موسى عليه السلام ،
ومنها ألقته أمه فى اليم وهو النيل ، ويقرب النيل المدينة
القديمة المنسوبة ليوסף الصديق وبها موضع السجن الذى
أقام فيه ، وأهراء الطعام التى أختزنها ، ومنها البنى
الموضع المعروف بمنية ابن الخصب وهى مدينة على الشاطئ
الايمن للنيل كبيرة الساحة متسعة المساحة^(٣) كثيرة الاسواق
والحمامات وسائر مرافق المدن ، وعلى مقربة منها المسجد

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٢/٥٣

(٢) قوص : مدينة تقع على الشاطئ الشرقى للنيل جنوبى
القاهرة بنحو ٣٥٠ ميل ، وظلت فى القرون الاولى للهجرة
محطة استقبال للحجاج القادمين من مصر والمغرب وكانت
أبنيتها تبعث على العجب ، وهى مدينة قديمة محاطة بسور
من الحجر وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبيرة ، وموسم
الحج بها كان له طابع مميز وذلك لأنه يحمل دلالتين :
الاولى هى الدلالة الدينية وهى بيت الله الحرام والطواف
بالكعبة وزيارة الروضة الشريفة ، والدلالة الثانية هى
الدلالة الاقتصادية التى كانت تعيشها المدينة خلال هذا
الموسم من كل عام .

ابن صهيب : قوانين الدواوين ص ٣٢٥

المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨١

القدوسى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٧٢

ابن نحرى بربر : السجود الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٢

ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣١/٧١

محمد عبده الحجاجى : قوص فى التاريخ الاسلامى ص ٨٥

(٣) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٢٦

المنسوب لابراهيم الخليل ، ويقال أن بفنائه أثر أقسام
الدابة التي كان يركبها .

وفي الطريق بالشاطيء الشرقى للنبيل الجبل المعروف
بجبل المقله وهو نصف الطريق الى قوص من مصر اليه ثلاثه
عشر بريداً (١) ومنه الى قوص مثلها . (٢)

ومن الاماكن التي يجتازها الحجيج بعد جبل المقله
مدينة منقلوط بمقربة من الشاطيء الغربى بها الاسواق ،
وأشتهرت بزراعة القمح ، ومنها الى مدينة أسيوط وهي من
مدن الصعيد الشهيرة بينها وبين الشاطيء الغربى من النبيل
مقدار ثلاثة أميال وهي جميلة المنظر حولها بساتين النخل
ولها سور عتيق .

وعلى الشاطيء الغربى للنبيل أيضا موضع يعرف بأبى
تيج به الأسواق وسائر مرافق المدن . وفي الطريق الى قوص
مدينة أخميم وهي أصيلة البنيان عجبة الشأن (٣) بها مسجد
ذى النون المصرى ومسجد داود أحد المالحين المشهورين
بالخير ، وبهذه المدينة آثار ومصانع وكنائس معصورة (٤) .

(١) بريد كلمة فارسية معناها " مقطوع " ويقال أن الفرس
استخدموا فى نقل البريد دواب مقطوعة الذنب تميزها لها
عن غيرها ، فسميت " بريد ذنب " ثم حذف العرب كلمة
ذنب واقتصروا على لفظ بريد ، والبريد فى الأصل اسم
للمسافة مقدرة بأربعة فراسخ .

القلقشندى : صبح الأعش ج ١ ص ٥٨ ، ج ١٤ ص ٢٦٦

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٦

(٣) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٢٨

(٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٨

وبعد أخميم موضع يعرف بمنشأة السودان على الشاطئ
الغربي من النيل وهي قرية عامرة بينها وبين النيل رصيف
عال يشبه السور من الحجارة .

ومن الأماكن التي يجتازها الحجاج بعد ذلك ، موضع يعرف
به " البلينا " وهي قرية حسنة كثيرة النخل بالشاطئ الغربي
من النيل ، ثم موضع يعرف به " دشنة " بالشاطئ الشرقي وهي
مدينة ذات سور فيها جميع مرافق المدن بينها وبين قوص
بريدان ، ثم موضع يعرف به " دندره " وهي مدينة من مدن
الصعيد كثيرة النخل حسنة المنظر بينها وبين قوص بريد
واحد ، ثم قنا وهي مدينة بيضاء أنيقة المنظر ومن مآثرها
احتجاب نساءها والتزامهن البيوت^(١) ومن هذه المدن " قفط "
وهي بشرقي النيل وعلى مقدار ثلاثة أميال من شاطئة ، وهي
من مدن صعيد مصر حننا ونظافة وبيضان وأتقان موضع .

ثم يكون الوصول إلى " قوص " فينزل الحجاج بفندق
ينسب إلى ابن العجمي بالمنية ، وهي ريف كبير خارج المدينة
على باب الفندق المذكور ، ثم تأخذ قوافل الحجاج طريقها
من هذا الريف إلى مكان يقال له " المبرز " وهو موضع قسي
الاتجاه القبلي من قوص على مسافة قريبة منها فسيح المساحة
مخاط بالنخيل يجتمع فيه الحجاج حيث يتم وزن ما يحتاج
إلى وزنه على الحماليين^(٢) ، وفيه تعد وتجهز الأبل استعدادا

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٠

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦١

لشد الرحال الى عيذاب^(١) عبر الصحراء الشرقية لمدة خمسة عشر يوما يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلو مترا . والابل هـى

(١) عيذاب : مدينة على الشاطئ المصرى للبحر الاحمر على ساحل بحر جده غير مسوره وأكثر هبوتها أخصاص ، وكانت من أشهر المواشى الاسلامية وأعظم مراسى الدنيا فى القرون الوسطى ، فهى ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان أى أنها كانت من مصر بالامن مكان ميناء السويس الحالى . وكانت مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وكان يسكن فيها (حاكمان) حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل الباجة والأخر تابع لحاكم مصر ، وكانا يأخذان عوائد مسرور قدرها عشرة جنيهات عن كل حاج مغربى وسبعة جنيهات على الحجاج الأخرين ، ويقتسمان ما يحصل بينها وبين أمير مكة

أبن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٢ / ٦٤

المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٢٧

البتونى : الرحلة الحجازية ص ٢٨ / ٣٠

أما قبائل الباجة أو البجاه أو البجه ، يقال أنهم من البربر وهم قوم لا دين لهم ولا عقل ورجالهم ونساءهم أبدا عراه ، وعلى عوراتهم خرق ، وكثير منهم لا يسترون عوراتهم وكانوا يسكنون صحراء مصر الشرقية من سواكن الى نرية يقال لها الخزية فى صحراء قوص ، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد ، وكانت العرب تخرج منها الفعادن وخصوصا (التبر) فى القرنين الاول والمائى للهجرة ، وذلك بالاتفاق مع ملك البجة الذى كان مقره أسوان وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير . فأرسل الخامون اليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بيعة وبين كنون رئيسهم كتابا يدل على مقدار التسامح الاسلامى مع أهل الذمة ، وكيف أنه لا يفرق بينهم وبين المسلمين المسلمين فى المعاملة .

المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٢٨

ناصر خسرو : سفر نامه ص ٧٢

البتونى : الرحلة الحجازية ص ٢٨ هاش ١

انظر نص الكتاب ص ٢٨ ، ٢٩ هامش ١

الرسيلة الوحيدة للانتقال في ذلك الوقت . وركوب الأبل
كان يتم على طريقتين : الأولى لذوى الجار يستعمل عليها
الشقاديف^(١) وهى أشبه بالمحامل ، وأحسن أنواعها اليمانية
يوصل منها الاثنان بالحبال الرشيقة ، ولها أذرع قد حففت
بأركانها يكون عليها مظلة ، فيكون الراكب فيها مع عديلة
فى كن من لفح المهاجرة^(٢) ويقعد مستريحا فى وطائه متكئا
بتناول مع عديلة ما يحتاج اليه من زاد وشراب ، ويظالغ
متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب ، ومن شاء اللعب
بالشطرنج يستطيع أن يلعب عديلة^(٣) تفكها واجماما للنفس .

والطريقة الأخرى لأكثر المسافرين من عامة الحجاج ، فهى
الأبل المجردة من المحامل والسروج ، فيكابدون من صوم الحر
عنتا ومشقة .

(١) الشداف : عبارة عن سرير من الخشب وقاعدتيهما من
الحبال ، وعلى حافة كل سرير من الجانب الخارجى
والخلفى شبكة من عيدان أشجار السنط بحيث إذا ضم
السريران الى بعضهما على ظهر الجمل بجبال متينة
يكونان قبة يغطونها بشيء من الحشيش وركابها يضعون
عليها فى الغالب بعض الأكلمة المقربة أو التركيبة
فتقى الراكب من الشمس والمطر .

والشداف يسع شخصين ويمكنها أن يناما فيه كمنام
يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مؤيدات
صغيرة خفيفة يضعها على ما يجب .

البتنوى : الرحلة الحجازية ص ٢٠٧ هامش ١

(٢) لفح المهاجرة : وهج الشمس وحرها الشديد ، والمراد
أنه يحتمى من حرارتها الشديدة .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٢

والطريق الى عيذاب له ملكان (قوم - عيذاب) قنا -
عيذاب) وهذان الطريقان يمران في صحراء عيذاب (١) ويتقيا
بموضع يقال له ماء العبيدين (٢) . والطريق الاول أقل مسافة
من الثاني (٣) . وطريق الحجاج عبر هذه الصحراء يبدأ من
المبرز الى ماء يعرف بالحاجر ثم الى قلاع الضياع ثم الى
محط اللقيطة ومنها الى موضع ماء العبيدين ، ثم الى مكان
يعرف بـ " دنقاش " ومنها الى ماء شاغب ثم الى ماء امتان
وهي في بئر معينة خصها الله بالبركة وهو أطيب مياه
الطريق وأعذبها ، ومنها الى ماء يعرف بـ " مجاج " الذي
ماء يعرف بـ " العشراء " على بعد مرحلتين من عيذاب ، وبهذا
المكان كثير من شجر العشر (٤) وهو شبيه بشجر الأترج (٥)
لكن لا شوك له ، ثم يملك الحجاج طريقا سهلا رمليا يسمى

(١) يذكر المقرئزي أن صحراء عيذاب كانت مزدهره في القرن
الخامس الهجري باعتبارها طريق حجاج مصر والصخر أكثر
من ماثتي سنة ، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة أهلية
بما يندر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى أن
أعمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد تلقاه
بها والقوافل صاعده وهابطة لا يعترض لها أحد حتى أن
يأخذها صاحبها ، ولم تزل ملكا للحجاج في ذهابهم
وأيابهم من سنة ٤٥٠ هـ الى ٦٦٠ هـ .

المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣٢٧

(٢) موضع به ماء ينسب للعبيدين ، ويذكر أنهما ماتا عطشا
قبل أن يرداه ، فسمى ذلك الموضع بهما وقبرهما به .

ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦١

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٢

(٤) شجر العشر : نوع من الشجر كبير عريض الورق وله ضلع

طـ

(٥) شجر الأترج : نوع من الفاكهة واحده أترجسة .

الوضوح ثم إلى ماء الخبيب ومنه مباشرة إلى ميناء عيذاب^(١). وكان الحجاج يقيمون في عيذاب نحو شهر في انتظار المراكب التي تحملهم إلى جده ويسمون بها " الجلاب "، وهي الوسيلة الوحيدة المعروفة لركوب البحر آنذاك ، وهي من نوع بسيط لكنه يمتاز بالمتانة في الصنع .

وكان أهل عيذاب الذين يطلق عليهم العيذابيون مهرة في صنع هذه المراكب ، وذلك لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للتمكيب والرزق يحملون فيها الحجاج والتجار إلى جده ويردونهم وقت انقضاءهم من أداء الفريضة ، وتلك الجلاب كانت تصنع من خشب كانوا يستوردونه من الهند واليمن بطريقة لا تدخل فيها المسامير الحديدية البتة ، وذلك بأن يقطع الخشب ألواحاً بمقاييس معينة بحيث يتضافر بعضها مع بعض عند تركيبه بطريقة التعشيق ، ثم تجمع هذه القطع ويربط كل منها مع ما يشابهها بجبل مصنوع من القنبار^(٢) وهو ليف قحرجوز النار جبل^(٣) ، ثم يخاط جسم المركب كله بعد ذلك بحبال من عيدان النخيل خياطة محكمة بحيث لا يترك فرجة

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٣

(٢) القنبار : هو ليف جوز النارجيل ويديغ في مصر علمي الساحل ، ثم يضرب بالمراكب ثم يعزله النساء ويصنع منه الحبال لخياطة المراكب .

ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٢١

ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٥

(٣) نبات النارجيل : هو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً ، وشجوه شبة النخل لا غرق بينهما ، إلا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر ثمرات وجوزها يشبة رأس ابن آدم لأن فيها ليف يشبه الشعر وهم يصنعون منه حبالاً يخيطون به المراكب عوضاً عن مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب .

ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٧

أو خرق صغير ، وبعد أن يتم بناء الجسم بهذه الصورة يدهنوه
بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش وهو أحسنهم ،
وذلك لاعطاء قدر من المرونة لجسم المركب حتى تتحمل الصدمات
والاحتكاكات الناشئة من كثرة الشعاب الصخرية المعترضة
في مجرى هذا البحر .

أما أشرعها فهي مصنوعة من خوص شجر المقل (الدوم) .
ورغم ضعف بنيتها هذه المراكب إلا انها مناسبة لطبيعة مجرى
البحر بسبب مرونتها .

وكان الجشع يملأ قلوب العبيدانيين ، فصاحب المركب
لاتهمه سلامة الحجاج بقدر ما يهيمه جمع المال ، فيشحنونها
بأكثر من حمولتها حتى تغدو كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ،
ويقولون في ذلك مثلا متعارف عليه بينهم " علينا بالألواح
وعلى الحجاج بالارواح " . وكثيرا ما كانت تفرق في وسط
البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك
الأشرار ، ومن وصل به طول عمره الى جدة وطبها في نحو
أسبوعين يتقلب في أثنائها بين تحكم الملاح وتبرم الرياح
وانزعاج الماء واضطراب الهراء . (١)

وجدة كانت قرية على ساحل البحر الأحمر أكثر بيوتها
أخصاص ، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين ، وفي أعلاها
بيوت من الأخصاص . وأكثر أهل هذه الجهات فرق وأحزاب

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦٤ / ٦٥ / ٦٦ .
ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٨ / ١٥٩
المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣٢٨
البيهقي : الرحلة الحجازية ص ٢٨

تفرقوا على مذاهب شتى وكانت نظرتهم الى الحجيج نظيرة
استغلال هدفهم الحصول على أكبر قسط من الفوائد والربح
منهم . فالحجاج لا يزال معهم في غرامه ومونه الى أن ييسر
الله رجوعه الى وطنه . (١)

وظلت جده منذ أيام عثمان بن عفان وحتى قيام دولته
العماليك ميناء لمكة تستقبل الخجاج اليها بطريق البحر فتردهم
أسواقها في مواسم الحج ، ويكثر النازلون بها والخارجون
منها فيستفيد أهلها من ذلك استفادة كبيرة (٢) . واستمرت
جده في النمو شيئاً فشيئاً تبعاً لزيادة دخلها وقوة الحركة
التجارية التي تقوم فيها في مواسم الحج (٣) . إلا أن جده
لم تصح ميناء لمكة بل ميناء الحجاز ومن أكر الموانئ
في الشرق كلة قبل القرن التاسع الهجري (٤) .

(١) ابن خبير : رحلة ابن خبير ص ٦٨

(٢) البتوني : الرحلة الحجازية ص ١٠

(٣) د. نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ١١٢

3) lane-poolè: History of Egypt in the middle ages

عناية صلاح الدين بالحجاج المقاربة ووقف الأوقاف عليهم

قابل الحجاج - خاصة الحجاج المقاربة - الكثير من المصاعب والمتاعب واخذ منهم الجهد ونال منهم النصب والكثير بسبب المكوس^(١) التي فرضت عليهم وهم في طريقهم الى بيت الله الحرام ، وكان الخلفاء العباسيون في بغداد يعرفون مقدار تلك المكوس التي تؤخذ من الحجاج القادمين بطريق البحر ، ويقضون الطرق لما يعانونه من ضعف من ناحية أخرى^(٢) .

ويصف ابن جبير كيفية معاملة الحجاج المقاربة بمصر وهم في طريقهم الى أداء فريضة الحج ، ومدى شعنت عمال

(١) المكس والجمع مكوس ، الضريبة غير الشرعية ، وقيل شرح هذا المصطلح الدكتور محمد مصطفى زيادة فسنين تعليقا على كتاب (السلوك ج ١ ص ٢٦٧ هامش ٤) بقوله " المكوس جمع مكس ، ومن معانية في اللغة الحربية الضريبة التي كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية ، والمكوس في مصطلح مؤرخي مصر الاسلامية كل ما تحصل من الاموال لذيوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي ، وتسمى أيضا المال الهلالي ، وقد عرفت هذه الاموال في مصر باسم المكوس منذ الدولة الفاطمية ، ومن أنواعها ما كان يؤخذ في الشهور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ، وما كان مقررا بالقاهرة والفسطاط على مختلف المحاصيل والمصنوعات والاماكن ، مثل مكس القوافل ومكس البهار ، ومكس فندق القطن ، ومكس معدية البحر بالجيزة وغيرهسا .

المقريزي : الذهب المسبوك ص ٨٨ هامش ٢

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٤

ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٥

الدراوين في تحصيل المكوس منهم فيقول " بتوجه أسماء الى المركب القادم بالحجاج الى الإسكندرية لقيد أسماء زكابه وطلاتهم وأسماء بلادهم القادمين منها ، وسؤال كل فرد منهم عما لديه من سلع وخلافة ليؤدي زكاته بغض النظر ان كان قد حال عليه الحول أم لا ، ويستخدم هؤلاء الامناء أحسد الركاب لمؤالاه عن أبناء المقرب والسلع الموجودة بالمركب ويضاف به على الوالى والقاضى ومعال الدراوين ، ثم على جماعة من حاشية السلطان لنفس الغرض^(١) . ثم بأمرهم بأنزال بضائعهم وما يحملونه من زاد ومؤونة لطريقهم ، والتوجه بهم الى مقر الديوان بالإسكندرية وقد غص بالزحام حيث يتم تفتيشها بحثا عما على أن يكون بداخلها ، وربما الزمومهم الايمان على ما بأيديهم أو عن وجود شيء آخر معهم ويحضرون كتاب اللقيع اليعين عليه ، فيقف الحجاج بين أيدي عمال الدراوين مواقف خزي ومهانة . وفي أثناء ذلك يضع الكثير من حاجيات الناس لكثرة الزحام واختلاف الانبساط^(٢) ويواجهون غمنا ومشقة كبيرة ، وربما كان منهم من لا زيادة معه على ثقته أولا ثقة عنده ، فيلزم بإداء الضريبة المعلومة وهي سبعة دنانير ونصف دينار مصرية على كل شخص ومن يعجز عن أدائها يتناول اللحم العذاب بعذاب فكانت كائنها مفتوحة القيس .

فلما سيطر صلاح الدين الأيوبي على مصر والشام ، أسقط تلك المكوس عن الحجاج وهي الباقية من المكوس الفاطمية وعموض الشريف مكتر بن عيسى أمير مكة عن ذلك بالقى دينار

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٤
(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٩/٤٥

وَألف أردب قمح سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن لادراكنة أن
دخل مكة لا يفنى بمصالح أهلها^(١) . وكتب الى والى قيسوق
بأهزال النمكوس التي تؤخذ من الحجاج وتجار اليمن^(٢) .

والى جانب ذلك ، كان من أجل الأعمال التي منها السلطان
صلاح الدين أنه عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين
لكل انسان في اليوم مهما كان عددهم . وعين من قبلة أميننا
يقوم بهذا العمل ، وقد يصل عدد ما يوزعه أو أكثر . وأوقف
لذلك أوقاف من قبلة مضافا إليها جزية اليهود والنصارى
علاوة على ما عينه من زكاة العين لهذا الغرض وهي توارى
خسة اثمان والثلاثة اثمان له . وطلب من عمالة وأكد عليهم
أنه من ينقص من الأموال العروضة لهذا الشأن أن يرجعوا الى
طلب ماله .

ومن أعجب ما يروى في هذا المدد أن بعض من يريد
التقرب بالنصائح الى السلطان ، ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون
جناية الخبز ولا حاجة لهم بها رغبة في الإقامة لانهم
لا يملون الا يزداد يكفيهم ، فكاد يؤثر بعي هذا الغاصح
ويستجيب لقولة . . . فلما كان في أحد الايام خرج السلطان
على سبيل الاستطلاع خارج بلده ، فلقى جماعة من هؤلاء
الحجاج لفظتهم المحراء المتمطة بطرابلس من جهة الغرب وقد
أنهكهم ودوابهم الجوع والعطش^(٣) . فسألهم عن وجهتهم

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٥

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٤

الخطط ج ٢ ص ٢٢٢

البيهقي : الرحلة الحجازية ص ٣٠

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٤

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٦

وعما لديهم ، فأعلموه . أنهم قاصدون بيت الله الحرام وأنهم
ركبوا البر وكابدوا مشقة في الصحراء ، فقال لو وصل
هؤلاء وهم قد أعثفوا هذه المجاهل التي أعثفوها وكابدوا
من الشقاء ما كابدوه وبئد كل واحد منهم زنته ذهباً وفضة
لوجب أن يشاركوا ولا يقطعوا عن العادة التي أجريناها
لهم ، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرب اليها
بالسعي في قطع ما أو جنبناه لله عز وجل خالماً لوجهة (١)

وفريضة الحج من الأركان الدينية التي تأثرت التي
حد كبير بنظام الأوقاف في عصر العماليك ، ولا سيما بالنسبة
لغير القادرين ، فاشترط كثير من الواقفين أن يصرف ريع
أوقافهم أو جزء منه في ماعده غير القادرين لأداء فريضة
الحج ، ذلك أنه بالرغم من أن الحج لم يفرض إلا على القادرين
إلا أن قوة الشعور الديني في هذا العصر جعلت الكثيرين
يتوقون لتأدية الفريضة ، ووجد الواقفون أن في إيمانهم
على تأدية الفريضة وجه من وجه البر التي ينفقون فيها
مدقاتهم من ريع أوقافهم ، فشرطوا أن يصرف جزء من ريع
الوقف في كل سنة في ماعده الذين يخرجون لتأدية فريضة
الحج ، ويشرفون على الهلاك إما لضعفهم أو لفقدهم سوا
في طريق الذهاب أو العودة ، من ذلك ما يذكر من أن السلطان
برقوق أوقف ناحية بهتيت (٢) على سحابة (٣) تدير مع الحج

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤٧

(٢) بهتيت : هي إحدى قرى الجزيرة القديمة

د. محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في

مصر ص ٢٢٢ هامش ٣

(٣) السحابة : هي الطائفة ممن يرافقون الحاج للمحافظة
عليه

د. محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٢٢٣

هامش ٤

الى مكة في كل سنة ، ومعها جمال تحفل المشاء من الحج ،
وتصرف لهم ما يحتاجون اليه من الماء والزاد ذهابا وايابا
ويؤكد هذا المعنى ما جاء في احدى الوثائق من توجيه جزء
من ربيع اللوقف وهو الذي يجهة الناظر كل سنة صحبة الركيب
الشريف والمحمل السلطاني ، المتوجة الى الحجاز الشريف
صحبة كل سنة ، صحبة من يوثق بدينة وخبرة وعفة وأمانتية
وكفايتة والذي يصرف ذلك بطول الطريق ذهابا وايابا على
المنقطعين من الحجاج الذين قاربوا الاشراف على الهلاك من
المسلمين ، في أجرة حمل واطعام طعام ، واسقاء ماء
وكلفة ما يكون في ذلك أبقا لمهجم وحفظا لآيادهم فليس
ايصالهم الى ماتهم على العادة ، ويصرف ذلك عليهم
بمباشرة من يكون متصفا بصفات الفدالة والخير والعفة
والديانة ، ويصرف لمن يباشر ذلك ممن هو بالمفقات المشروطة
من الجفاله ما يراه الناظر ، وذلك بمباشرة أمير الحاج ،
وأطلاعة على ذلك ، فان فضل عن ذلك شيء فرقة بالحرمين
المذكورين ، فان تعذر صرف ذلك على المنقطعين ، فرق على
الفقراء والمساكين واليتام والضعفاء والعاقرين بالحرمين
المذكورين أو بأحدهما ان تعذر الأخير (١).

(١) د . محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية

أثر الحروب الصليبية على طريق الحج

تأثر نشاط القلزم بالخطر الصليبي الكامن في بيوت المقدس ، ومنذ مجيء الصليبيين الى الشام ، وسقوط بيوت المقدس في أيديهم سنة ٤٩٤هـ/١٠٩٩م بدأ بلدوين الأول يفكر في حماية هذه المملكة من ناحية الجنوب ، فقام بحملة على الاولى الشهيرة في شبه جزيرة سيناء ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة وهي المنطقة المعروفة باسم " وادي عربية " وكان الفرض من حملة بلدوين هذه عزل مصر عن بقية العالم الاسلامي في الشرق وقطع الطريق البري بينها وبين الشام والحجاز (١) . فبدأ بلدوين الاول بالسيطرة على وادي عربية ، ثم شيد سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م حصن الشويك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربية بأكملة .

وفي العام التالي ٥١٠هـ/١١١٦م خرج بلدوين في حملة أخرى ووصل حتى أيلة ، وبني بها قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام (٢) ، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة ، وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء ، ولكن زهبان دير القديسة كاترينة في سيناء رفضوا التعاون مع

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢١٨

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢١٨

Runciman : A History of the crusades Vol 1 P. 97-98

Setton : A History of the crusades Vol 1 P. 406.

بلدوين الاول أو حتى استضافته خشية انتقام الفاطميين فى القاهرة مما جعل بلدوين يتصرف عائدا الى بيت المقدس (١) دون تحقيق هدفه ، الا انه فكر فى مهاجمة الفاطميين فى مصر ليشرعهم بقوة ، فعبر الصحراء الممتدة من غزة الى العريش دون أن يتعرض لتهديد البدو فى هذه المنطقة ، ووصل الطليبيون الغرما وأستولوا عليها سنة ٥١٢هـ/١١١٨م وهى أول العراكر الامامية فى الاراضى المصرية ، واتجه غربا حتى مدينة تنيس ، ولم يستطع التقدم أكثر من ذلك لصغر قوته وموته قرب العريش فى نفس العام (٢) .

وقد تأكد هذا الاحاس فى صورة عملية عندما قام ارناط حاكم حصن الكرك الطليبي بحملة الشهيرة على البحر الاحمر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م مستهدفا بذلك السيادة على البحر الاحمر وطقن الاسلام فى قلبه بغزو الحرمين الشريفين ، فأنشأ سفنا وحملها الى البر الى بحر القلزم ، وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين على حرره (٣) قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء ، وسارت البقية نحو عيذاب ، فقتلوا وأسروا واحرقوا فى بحر القلزم نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركبا تأتى بالحجاج من جده وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع وأستولوا على مركبين فيها بضائع جاءت من اليمن ، وأطعمه كثيرة من الساحل كانت معه لميرة الحرمين ، وأرتكبوا حوادث

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الطليبية ج ١ ص ٢١٩

(٢) د. سعيد عاشور : الحركة الطليبية ج ٠ ص ٢١٩/٢٢٠/٢٢١

ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥١٢

(٣) الحزرة بكسر الحاء ، الموضع الحصين

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٨ هامش ٤

لم يسمع في الاعلام بمثلها . ولم يبق بينهم وبين الهدينة
الصنورة سوى مسيرة يوم واحد .

ونتيجة لهذا الخطر الطيبى ، فقد كلف السلطان صلاح
الدين أخاه الملك العادل بالاسراع الى القضاء على هذا
الخطر وحماية المسلمين فاسرع العادل الى اعداد اسطول
قوى في البحر الاحمر تحت قيادة الحاجب حمام الدين لؤلؤ
متوليا الاسطول بديار مصر ، وبدأ حمام الدين بحضار أيلبة
وسار متجها الى عيذاب والخوراء قرب ينبع وكان بها الجزء
الأكبر من تلك السفن الطيبية ، وظفر بمراكب الفرنجسة
فحرقها وصعد البر حتى أدرك من فوق من الخونة بعد أن
تعهد هؤلاء بالخونة من اليدو بارشادهم الى داخلية البلاد
وأخذهم فساق منهم اثنين الى منى وشعرهما بها كما تنحصر
البدن . وعاد الى القاهرة بالاسرى في ذى الحجة فـسـرب
أعناقهم جميعا بعد استعراضهم في شوارع القاهرة والاسكندرية
وغيرها من المدن الكبيرة ، وأما ا رناط نفسة فقد أقسم صلاح
الدين ألا يغفر له فعلته هذه ونذر دمة (١) .

وفي رسالة للقاضي الفاضل أوردها أبو شامة وابن واصل
مؤداهما أن الطيبين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية
تحقيق هدفين خطيرين أولهما : " قطع طريق الحاج عن حجه
وضرب العالم الاسلامي في قلبه وطمع المسلمين في قلوبهم " .

(١) المقرئى : الملوك ج ١ ص ٧٩

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٧

ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٧

د. سعيد عاشور : الحركة الطيبية ج ٢ ص ٢٥٩

وثانيهما : " أن الطليبيين كانوا يرمون الاستيلاء على عدن في جنوب البحر الأحمر لأخذ تجار اليمن وعدن " . (١)

ونستدل من كتاب صلاح الدين للخليفة العباسي تميمه وعزمه على اقرار النفوذ الاسلامي في البحر الأحمر حين قال " ان انتصار الاسطول الطليبي القاصد سواحل عدن واليمن يفتح طريق الحاج من حجة ويأخذ تجار اليمن وكرام عدن ويلزم بمسواحل الحجاز " . (٢)

وفي النهاية فقد استطاع صلاح الدين من فرض سيطرته على الحجاز واستيلائه على قلعة أيلة بعد احباط محاولات أرناط في تنفيذ محاولاته العدوانية في البحر الأحمر سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، وواصل الايوبيون جهودهم بعد صلاح الدين لاحكام السيطرة على البحر الأحمر ، فكانت قطع أسطولهم تمخر عباب هذا البحر الى الحجاز واليمن وغيرها . (٣)

واستمر اهتمام سلاطين المماليك بالبحر الأحمر حيث كان لهم قوة حربية بحرية دائمة به ، وكانت عدة هذه القوة خمس مراكب ثم تعدت ثلاثة ، وكان والى قوص هو المتولى لقيادة هذا الاسطول والتي كانت مهمته تنحصر في حراسة الموانئ القريبة للبحر الأحمر ، وكان رمزاً لانزال الرعب في قلوب كل من تحول لهم أنفسهم تهديد سلامة القوافل . (٤)

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٦ / ٢٧

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٣٠

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٦ / ٢٧

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٧

(٣) المقرئى : الطوك ج ١ ص ٧٤ / ٧٦

(٤) المقرئى / الطوك ج ١ ص ٥٥٠

وكان هناك من الاسباب الدينية مما جعلها تحرض على اظهار وجود قوتها البحرية في البحر الأحمر ، ويتجلى ذلك بوضوح عندما لم يفترق أشرف مكة والمدينة باحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م التي أقامها الظاهر بيبرس بالقاهرة واقتسموا الحجاز فيما بينهم ، وكان بيبرس قد رأى أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع السياسة التقليدية المصرية ، ونتيجة لذلك عمد الى احياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فنصب أمير من أمراء العباسيين الغارين من وجه المغول وبايعه بالخلافة ولقبه " المستنصر بالله " (١) . وبعد أن تمت له البيعة قام بدوره وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز وما يفزوه من بلاد الأعداء . وقد اكتسب بيبرس بهذا العمل الشرعى نفوذاً أدبيا وروحيا في الأوساط الإسلامية مما مكنه من السيطرة على الحرمين واقصاء نفوذ الحفصيين منها ومد سلطانه باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر . (٢)

(١) د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ١٢٧

(٢) د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ١٢٨

المراجع والمصادر

المراجع المربّية :

ابن الأثير : (أبو الحسن بن علي الجزري الملقب عز الدين)

- الكامل في التاريخ -

١٢ جزء القاهرة ١٢٥٧ هـ

ابراهيم رفعت باشا :

- مرآة الحرمين -

جزءان ١٢٤٤ هـ / ١٩٢٥ م

ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله)

- رحلة ابن بطوطة المعماة " تحفة النظار في

غرائب الأقطار ومعائب الاسفار "

جزءان ، المكتبة التجارية المصرية ١٢٧٢ هـ /

١٩٥٨ م

ابن تغري بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

١١ جزء دار الكتب المصرية - القاهرة

١٩٢٩ - ١٩٥٠ م

ابن جبير : (أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكناني الاندلسي)

- رحلة ابن جبير -

دار الكتاب اللبناني - المصري

حسن ابراهيم حسن (دكتور)

- الفاطميون في مصر

القاهرة ١٩٢٢ م

أحمد مختار العبادي (دكتور)

- دراسات في تاريخ المغرب والاندلس

الامكندرية ١٩٦٨

- البحرية الاسلامية في مصر والشام في عصر

الايوبيين والمماليك بالاشتراك مع دكتور

السيد عبد العزيز سالم بيروت ١٩٧٢ م

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

- الحركة الطليبية

جزءان ، القاهرة ١٩٦٣

- العصر المماليكي في مصر والشام

القاهرة ١٩٦٥

- الأيوبيين والمماليك في مصر والشام

القاهرة ١٩٧٠

السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

جزءان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ

أبو شامة : (عبد الرحمن بن إسماعيل شهاب الدين)

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

القاهرة ١٢٨٧ هـ

ابن شداد : (بهاء الدين يوسف)

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

القاهرة ١٩٦٤ م

على باشا مبارك

- الخطط التوفيقية الجديدة

٢٠ جزء ١٣٠٤ - ١٣٠٦ هـ

القلقشندى : (أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله)

- صح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزء القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ م

الماوردي : (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب)

- الأحكام السلطانية

مطبعة المعادة بمصر ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م

محمد حمدي المناوي (دكتور)

- نهر النيل في المكتبة العربية

القاهرة ١٩٦٦ م

محمد عبد العزيز مرزوق

- الزخرفة المنسوجة في الأقمشة

الفاطمية

دار الكتب المصرية ١٩٤٢ م

محمد عبده الحجاجي

- قوص في التاريخ الاسلامي

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م

محمد لبيب البتيموني

- الرحلة الحجازية

مطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ

محمد محمد أمين (دكتور)

الاقواق والحياة الاجتماعية في مصر
دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٠ م

المفـرـيـزى : (تقي الدين أحمد بن علي)

- السلوك لمعركة دول الملوك

الجزئين الاول والثاني في ٦ مجلدات
تحقيق دكتور محمد مصطفى زبيـادة
القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ م

الجزئين الثالث والرابع في ٦ مجلدات
تحقيق دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
المعروف بالخطط طبعة بولاق في جزئين
١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م

والطبعة الاهلية في ٤ اجزاء مطبعة
النيل القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ

- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء
والملوك تحقيق دكتور جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٥٥ م

ابن ممتـى : (أبو المكارم أسعد بن الخطير)

- كتاب قوانين الدواوين

تحقيق دكتور عزيز موريال عطية
القاهرة ١٩٤٣ م

ناصر خسرو على

- سفرنامه

نقله من الفارسية الى اللغة العربية

دكتور يحيى الخشاب

القاهرة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م

نعيم زكى فهمى (دكتور)

- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين

الشرق والغرب

القاهرة ١٩٧٣ م

ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم)

- مفرج الكروبي فى أخبار بنى آيوى

٣ أجزاء الاولى تحقيق دكتور جمال الدين

الشيال ١٩٥٣ م ، والجزئين الرابع

والخامس تحقيق دكتور حسين محمد

ربيع ١٩٧٢ م ، راجعه وقدم له دكتور

سعيد عبد الفتاح عاشور

ياقوت : (شهاب الدين عبد الله الحموى)

معجم البلدان

٢٠ جزء القاهرة ١٩٣٦ م

المراجع الاوربية :

Dozy, R.P.A : Supplement aux Dictionnaires Arabes.

. Paris 1927

Encyclopaedia of islam.

Lane - Poole, stanly : A History of Egypt in the
Middle ages. London 1944.

Runciman : A History of the crusades 3 vols
(Cam bridge 1957).

setton, K.M. : A History of the crusades Vol 1 the
first hundred years ed. by
M.W. Baladwin in 1958.